المكتبة الصوفية

تحفة السالكين
ودلائل السائرين لمنهج المقربين

تأليف
العلامة محمد المنير السمنودي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة الصوفية

تُحفَةُ السَّالِكين
ودَلائل السَّائِرين
لمنهج المقرَّبين

تأليف

العَلاّمة محمد المنِير السّمنّودي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

تُحفةُ السَّالِكِين

ودَلائل السَّائِرين

لمنهج المقرَّبين

الطبعة الاولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠-٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

السمنودي ، محمد بن حسن بن محمد ، ... - ١٧٨٢
تحفة السالكين ودلائل السائرين لمنهج المقربين في بيان الطريق / لمحمد المنير السمنودي
- ط ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨
١٩٩ ص : ٢٤ سم
تدمك :٣٩٥- ٣٤١ - ٩٧٧
١- التصوف الاسلامي
٢- الوعظ و الارشاد
أ-العنوان

ديوى: ٢٦٠

رقم الايداع : ١٦٩٩٧- ٢٠٠٨/٨/٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو: محمد بن حسن بن محمد السمنودى الأزهرى، المعروف بالمنير.

فقيه شافعى، كان أول من انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية.

ولد فى سمنود بمصر سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م، وتعلم بالأزهر وتولى مشيخته.

وتوفى بالقاهرة سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م.

له منظومة فى «رواية ورش»، و «الدرر الجسام» فقه، و «منظومة فى علم الفلك» وشرحها، و «ثبت» وله «مقدمة تشتمل على رواية حفص» فى القراءات.

والكتاب الذى بين أيدينا.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أزال الران عن قلوب العارفين، وأبرز من سماء الذات نور شموس الأسماء لوصول السائرين، وأخرج فؤاد الأحباب من ضيق الاحتجاب إلى النور المبين، ورسم بيد العناية سطر آلاء إنعامه فى صفحات ألواح عقول المنكسرين، الذى أحيى أموات المقامات بوابل غيث الأذكار لإنبات العلوم اللدنية فى فؤاد الواصلين.

أحمده حمد من سقاه الله من خمر محبته شراب اليقين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من أقر بها بذل العبودية كان من الموقنين.

وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله، موضح طريق المقربين الذى أنزل عليه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، الذين مشوا على طريقته وتحققوا بحقائق الدين... وبعد.

فيقول العبد الفقير محمد المنير السمنودى: قد سألنى بعض الأخوان، رزقنى الله وإياهم اليقين والوصول إلى مقام التمكين، أن أجمع شيئًا مما يحتاجه الراغب فى سلوك الطريق ومنازل أهل التحقيق، فقرعت عند ذلك باب الاستخارة بيد الافتقار، وأسبلت الدموع عن مقلتى الذل والانكسار، وعلمت بأنى لست من

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩.

خيل هذا الميدان ممن تجول فيه فحول الفرسان، فحين أمدنى شيخى وقدوتى إلى الله الشمس الحفنى بنظره سرت فى بحر عرفانه أسبح، وبفيض أمداده أتنفح، فأجبته إلى ذلك طالبًا من الله العون والإخلاص، وأن يكون سببًا لنجاتى يوم القصاص.

وسميته «**تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين**».

ورتبته على عشرة أبواب وخاتمة.

«**الباب الأول**»: في كيفية العهد والتلقين ووصية الشيخ للمريد بعد العهد.

«**الباب الثانى**»: فى الذكر وآدابه والحث على استعماله.

«**الباب الثالث**»: فى بيان الطريق الموصل إلى الله وأركانها حسب ما قالوه على الوجه الذى ذكروه.

«**الباب الرابع**»: فيما يتعلق بالشيخ وشروطه وآدابه.

«**الباب الخامس**»: فى بيان آداب المريد مع شيخه.

«**الباب السادس**»: فى بيان آداب المريد مع إخوانه.

«**الباب السابع**»: فى بيان آداب المريد مع نفسه.

«**الباب الثامن**»: فى الأسباب التى يستحق بها المريد الطرد من شيخه.

«**الباب التاسع**»: فى النقابة والنقباء وما يتعلق بذلك.

«**الباب العاشر**»: فى النفوس وتقسيمها وأوصافها والأسماء التى يستعملها السالك فى كل نفس.

«**الخاتمة**» فى شىء من مصطلح القوم.

فأقول مستمدًا من الله القبول:

البـــاب الأول

فى كيفية العهد والتلقين
ووصية الشيخ للمريد بعد العهد

اعلم أن العهد لغة: التزام شيء ليوفى به في المستقبل، حقًا كان أو باطلاً، ومنه تعاهدت بنو فلان على كذا وكذا، وشرعًا: التزام قربة دينية، كالتزام الأنصار أنهم يحمون النبي ﷺ مما يحمون منه نساءهم وأولادهم، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[1] الآية، وقد ثبت من فعله ﷺ.

وشروطه: كمال الشيخ وانقياد المريد، ووجود التسليك، والأصل في التلقين ما رواه الطبراني والبزار وغيرهما أن النبي ﷺ لقن أصحابه كلمة: لا إله إلا الله، جماعة وفرادى، بعد أن سبق تكرارها منهم مذ أسلموا إلى ذلك الوقت، فأما تلقينه لأصحابه ﷺ جماعة فقد قال شداد بن أوس ﷺ: كنا عند رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «هل فيكم غريب؟» يعني من أهل الكتاب؟ قلنا: لا يا رسول الله، فأمر رسول الله ﷺ بغلق الباب وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم».

وأما تلقينه ﷺ لأصحابه فرادى فقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي عليك بمداومة ذكر الله، عز وجل، سرًا وجهرًا» فقال علي ﷺ: كل الناس ذاكرون يا رسول الله، وإنما أريد أن تخصني بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا علي، أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله، ولو أن أهل السموات السبع

(١) سورة الفتح آية ١٠.

والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت لا إله إلا الله» ثم قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله» ثم قال علي ﷺ: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «غمض عينيك واسمع مني لا إله إلا الله، ثلاث مرات، ثم قل أنت: لا إله إلا الله، ثلاث مرات وأنا أسمع» ثم رفع رأسه ﷺ ومد صوته وهو مغمض عينيه وقال: لا إله إلا الله، ثلاثًا، وعليٌّ يسمع، ثم إن عليا رفع رأسه ومد صوته وهو مغمض عينيه وقال: لا إله إلا الله، ثلاث مرات، والنبي ﷺ يسمع.

هذا أصل سند القوم في التلقين، وإنما أمر النبي ﷺ بغلق الباب إشارة إلى أن طريقة القوم مبنية على السر وصفاء الوقت وأنه لا ينبغي أن يذكر لك منه بحضرة من ليس منهم ولا يعتقد فيهم.

واعلم أن من فوائد التلقين ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله ﷺ، ثم إلى الله عز وجل، وأقل ما يحصل للمريد الصادق إذا دخل سلسلة القوم بالتلقين أن يكون إذا حرك حلقة نفسه تجاوبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله عز وجل، فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم، وإذا تحرك لا يجبه أحد.

ومن آداب التلقين وما يستحسن له: أن يأمر الشيخ المريد قبل ذلك أن يبيت ثلاث ليالٍ على طهارة، ويصلي كل ليلة ست ركعات، يقرأ في أولاها الفاتحة مرة، وإنا أنزلناه ستا، وفي الثانية الفاتحة وإنا أنزلناه مرتين، ويسلم ويهدى ثواب ذلك إلى روح النبي ﷺ ويستمد منه ﷺ القبول والعون والفتح، ثم يصلي ركعتين، يقرأ في الأولى الفاتحة والكافرون خمسًا، وفي الثانية الفاتحة والكافرون ثلاثًا، ويهدى ثواب ذلك إلى الأنبياء والمرسلين والأولياء أجمعين، ويستمد منهم،

ثم يصلي ركعتين، يقرأ فى الأولى الفاتحة والإخلاص أربعًا، وفى الثانية الفاتحة والإخلاص مرتين، ويهدى ثواب ذلك لمرشده ومشايخه، ويستمد منهم أجمعين القبول والفتح، ويصلى على النبى ﷺ عشرًا، ويقول فى الأخيرة منها: وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآل كلٍّ وصحبهم عدد ما خلق الله بدوام ملك الله، فإن كان يحسن ما تقدم فعل وإلا قرأ فى الجميع سورة الإخلاص وإلا بالفاتحة، ثم يجلس متربعًا يشرع في قوله: جزا الله عنا سيدنا ونبينا محمدًا ﷺ ما هو أهله، ألف مرة، كل ليلة عند نومه، ويكون ذلك آخر عمله فى فراشه حال كونه مستحضر النبى ﷺ كأن يراه متأدبا بين يديه بذلك الحضور والاستحضار وهو واضع جنبه على فراشه حينئذ وهو يذكر ليأخذه النوم على ذلك، فإن كان المريد شريف الاستعداد صادق الحالات حصل له من ذلك وقائع حسنة وإمدادات جميلة بأول أمره ليتبين حاله واستعداده قبل تلقينه ذكر الأم، وإذا أراد الشيخ غير ذلك العدد بأزيد منه أو أقل جاز على حسب نظره فى المريد أو بغير ذلك، كورد: اللهم يا رب محمد صل علي محمد، واجز محمدًا عني ما هو أهله ألفًا، أو كما يرى بأزيد أو أقل، أو سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أستغفر الله.

وقال فى السبط المعين فى فضل الذكر والتلقين بعد توبته: يستغفر الله مائة ألف مرة، فإذا أتمها صلى على النبى ﷺ بهذه الصفة مائة ألف مرة، وهي: اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب، وعلى آله وصحبه وسلم، فإذا أتمها لقنه ذكر الأم.

وقال بعضهم: من مستحسناته أن يستغفر الله سبعين ألف مرة، ثم يسبح مائة ألف مرة، ثم يصلي على النبى ﷺ مائة ألف مرة، ثم يلقنه ذكر الأم، فكل هذه مفاتح خزائن الله تعالى، فهو مفاتح الطريق فى قلوب عباده المسترشدين به إليه، وبعد ذلك يلقنه الذكر، صبح الثلاث، إن كان مقيمًا، أو ليله إن كان مسافرًا فإن

ضاق وقته أمره بالوضوء وصلاة ركعتين لله بقصد التوبة ويهدى ثواب ذلك لأهل السلسلة جميعًا وللنبي ﷺ، ويستمد منهم العون والفتح والقبول من الله عز وجل.

ويوصيه بما يليق به إن كان متجردًا للعبادة، أو كان متسببًا فيكون كما يراه له، فإن كان مسافرًا جعل له من ذكر الأم وردًا معينًا لا يخل به، على قدر ما يراه، لأنه طبيبه ودليله ومصاحبه فى طريقه: وبه يصلح انتسابه إليه فى الطريق وأهلها ويكون وارثا فيه له، وحياة نفسه بعد التلقين مع الجد والاجتهاد، وقد ورد في الخبر: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» فيحصل له بعد ذلك الإمداد بقدر الاستعداد.

واعلم أن التلقين للذكر أولا كالبذرة تغرس لتنبت فروعها بعد ثبوت أصلها فى قلب الذاكر فيمتد بالورد منها بقدر همته، والذكر نفسه مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، وينبغى للشيخ أن يذكر للمريد عند التلقين نسبه لئلا يجهل المريد آباءه إذا كان المريد لا يعرف سند الطريق، وسلسلة القوم أو كان هناك من لا يعرف ذلك، لأن من لا يعرف نسبه فهو لقيط فى الطريق، وربما انتسب إلى غير أبيه، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]، والمراد بمعرفة الآباء الاقتداء بهم فى الأخلاق الشرعية، وقال سيدى عمر بن الفارض: نسب أقرب فى شرع الهوى بيننا من نسب من أبوى وذلك لأن الروح ألصق بك، فأبو الروح يليك، وأبو الجسم بعده، فكان بذلك أحق بأن تنتسب إليه دون أبى الجسم، وورد أن المرء ابن دينه، وقد درج السلف الصالح كلهم على تعليم المريدين آداب آبائهم ومعرفة أنسابهم، وصرح فى القول المتين فى فضل الذكر

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥.

والتلقين أن ذكر سند التلقين مقدم عليه بخلاف سند إلباس الخرقة، وقال الشعراني في مدارج السالكين بعكس ذلك.

ولنذكر سلسلة القوم هنا تبركًا، وليقف عليها المريد الذى لم يرها، فنقول: «لَقّنَ رب العزة جبريل ﷺ، وهو لَقّنَ النبى ﷺ، وهو لقن على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو لقّن ابنه الحسن، والحسين، والحسن البصرى، وكمال بن زياد، والحسن البصرى لقّن حبيبا العجمى، وهو لَقّنَ داود بن نصير الطائى، وهو لَقّنَ معروف بن فيروز الكرخى، وهو لَقّنَ السرى بن مغلس السقطى، وهو لقن الجنيد بن محمد، سيد الطائفة، البغدادى، وهو لقن محمد الدينورى، وهو لقن محمد البكرى، وهو لقن وجيه الدين القاضى، وهو لَقّنَ عمر البكرى، وهو لقن أبا النجيب السهروردى، وهو لقن قطب الدين الأبهرى، وهو لقن ركن الدين محمد النجاشى، وهو لقن شهاب الدين محمد الشيرازى، وهو لقن سيدى جمال الدين التبريزى، وهو لقن إبراهيم الزاهد الجيلانى، وهو لقن محمد الخلوتى، وهو لقن محمد امبرام الخلوتى، وهو لقن الحاج عز الدين، وهو لقن صدر الدين الخيالى؛ وهو لقن سيدى يحيى الماكورى، صاحب ورد النستار وهو لقن سيدى محمد بهاء الدين الشيراوانى ويقال له الأرزنجالى، وهو لقن حلى سلطان الأقسداى الشهير بجمال الخلوتى، وهو لقن خير الدين التوقادى، وهو لقن الشيخ شعبان القسطمونى وهو لقن محيى الدين القسطمونى، وهو لقن سيدى عمر الفوادى، وهو لقن إسماعيل الجرومى المدفون بالغرب من مرقد سيدى بلال الحبشى بديار الشام، وهو لقن: على قرا باشا أفندم، وتخلف عن وليه الشيخ مصطفى الطبرانى هو الذى أجاز بالإرشاد وهو لقن الشيخ عبد اللطيف الخلوتى الحلبى، وهو لقن، وأرشد قطب الوجود مصطفى بن كمال الدين الصديقى صاحب ورد سحر، وهو لقن قطب

زمانه وفريد عصره وأوانه شيخنا الشمس الحفنى وهو لقن الفقير محمد بن حسن السمنودى الشهير بالمنير ولقن أيضًا سيدى محمد عبد الله الشنتناوى، ولقن سيدى عبد الله الشنتناوى سيدى حسن المصيلحى، ووقع الفتح الأكبر.

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وكيفية العهد أن يضع الشيخ يده فى يد المريد بعد طهارة كل منهما، ويجعل راحته على راحته يقبض إبهامه كما نقل عن شيخ الإسلام، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويستغفر الله تعالى، ويأمر المريد بذلك، ويأمره بالتوبة، ثم يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٢) الآية، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾(٣) الآية، ويدعو له ثم يقول: اللهم أعنه واحفظه وتقبّل منه، وافتح له باب كل خير كما فتحته على أنبيائك وأوليائك، ويقول اللهم اقبلنا وتقبّل منا، وانفعنا وانفع بنا، واهدنا واهد بنا، وأرشدنا وأرشد بنا وأصلحنا، وأصلح بنا، اللهم أرنا الحق حقا وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، اللهم اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك ولا تقطعنا عنك ولا تشغلنا بغيرك ثم يقول: الله على ما نقول وكيل، ويقرأ الفاتحة.

وكيفية التلقين: أن يجلس بين يديه على ركبتيه مستقبل القبلة بعد صلاة ركعتين وتوبة، كما تقدم وعلى ما تقدم، ثم يطرق الشيخ برأسه، ويدعو سرًا

---

(١) سورة التحريم آية ٨.
(٢) سورة الفتح آية ١٠.
(٣) سورة النحل آية ٩١.

بالفتح وهو واضع يده على ركبة نفسه، وكذا المريد، وكلٌّ غاض بصره ويقول له اسمع منى ذكر الجلالة ــ ثلاث مرات ــ وقل أنت بعدى، ذلك ثلاثًا وأنت مغمض عينيك وأنا أسمع منك، ثم يستأذن الشيخ ويطلب المدد من أهل السلسلة، ويقول: دستور يا أهل هذا الشأن، دستور يا أصحاب القدم دستور، يا قطب الزمان وبلغته فإذا احتمع عهد تلقين قُدم العهد ويدعو للمريد بعد ذلك بنحو ما تقدم ثم يوصيه الشيخ بعد ذلك قبل أن يقوم من بين يديه، وهي نتيجة العهد فيقول: اسمع منى وصيتى إليك واعمل بها كما ألزمت نفسك عهد الله وميثاقه أن تتقى الله فى سائر أحوالك وتخلص فى جميع أعمالك ولا تلتفت لنظر الحق إليك فى مدح وذم، بل غب عنهم بنظر الله تعالى واطلاعه على سرك وعلانيتك، وعليك باتباع الكتاب والسنة فإنهما الطريق الموصل إلى الله تعالى، واعمل متجردًا عن حظوظ نفسك فى الدنيا والآخرة، ولا تعمل لملاحظة الكرامات ولا خوفًا من عقاب الله، ولا طمعا فى ثوابه، بل بقصد رضى الله عنك ومحبته إليك ورفع الحجب عنك والقيام بحقوق العبودية.

واعلم أن الثواب لا شك حاصل لك، وتحصيل الحاصل عبث، وعليك بالزهد فى الدنيا إلا ما ستر العورة أو آوى الجنة، وسد الجوعة، فإن زدت عن ذلك فإياك والغرور، وعليك بالورع عن كل ما فيه شبهة، عليك بكف الأذى، أوذيت عليك بالصبر فإنه رأس العبادة، وعليك بالرضى عن الله فى كل شيء ورد عليك منه، وعليك بمجالسة من يدلك على الله بقوله وبفعله، وعليك بكف لسانك عما لا يعنيك، وعليك بالثقة بالله على كل حال، وفى كل حال، والتوكل على الله، والشكر له، وعليك بذكر الموت فإنه أساس الزهد، وإياك والمخاصمة والمجادلة والمماراة، وإن كنت محقًا، وإياك والبغى وحب المدح والشهرة بالخير، وعليك بالتزام الأدب مع كل مخلوق، واعلم أن لكل مسلم بركة وسر عظيم، ولا تيأس

من رحمة الله وفرجه، وإن ضاقت الأمور، فإن الله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(١)] ولا تشكُ الله إلى أحد من خلقه، فإنه المعافى والمبلى والقابض والباسط والمضر والنافع، وتكون فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وتتفقد ما فى يدك من مكاسب الحرام، وتجتهد فى مكاسب الحلال وتترك ما يقطعك ويلهيك عن عبادة الله والزم قلبك التفكر فى مصنوعات الله وتعود نفسك السهر وتجعل الذكر أنيسك والحزن جليسك والزهد شعارك والورع دثارك والصمت قرينك، واقطع نهارك بالجوع والظمأ، وليلك بالسهر والبكاء، والتفكر فى ذنوبك السالفة، ومثّل الجنة عن يمينك والنار عن يسارك، والصراط تحت قدميك والميزان بين يديك والرب مطلع عليك يقول: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٢)] واستعمل ما هو نافع لك فى دينك ودنياك، وهي الطاعة، ودع ما هو مضر، وهى المعصية.

واعلم أن الله يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(٣)] وترك المعصية أولى من التوبة من الذنب.

قال بعضهم شعرًا:

فرض على الناس أن يتوبوا ... لكن ترك الذنوب أوجبُ
والدهر تصريفه عجيب ... وغفلة الناس عنه أعجبُ
والصبر فى النائبات صعبٌ ... لكن فوت الثواب أصعبُ
وكل ما ترتجى قريب ... والموت من ذاك أقربُ

---

(١) سورة الشرح آيتا ٥، ٦.
(٢) سورة الإسراء آية ١٤.
(٣) سورة الزلزلة آية ٧، ٨.

البـــــاب الثانى

فى الذكر وآدابه والحث على استعماله

اعلم أن الذكر هو ترداد اسم المذكور بالقلب واللسان، ولا شيء أقرب لطريق الوصول إلى الله عز وجل منه، فهو علم على وجود ولاية العبد المشتغل به، فمن وفق للذكر أعطى منشور الولاية، ومن سُلب عنه الذكر فقد عُزل عن الولاية.

قال بعضهم شعرا:

الذكر أعظم باب أنت داخله ... لله فاجعل له الأنفاس حراسا

قال الأستاذ القشيري: الذكر عنوان الولاية ومعيار الوصلة وعلامة صحة البداية، ودلالة ضياء النهاية، وليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى المذكور، ومنشؤها من الذكر.

قال بعضهم: إذا أراد الله أن يولي عبده فتح له باب ذكره، فإذا استلذ بذكره فتح له باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس بالله، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب، وأدخله دار القرب، وكشف له الجلال والعظمة، فإذا وقع نظره وبصره على الجلال والعظمة خرج من حبسه ودواعي نفسه، فكان تحت حكم ربه لا تحت حكم نفسه، وقد ورد الحث على ملازمة الذكر.

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[1] ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2] ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3] ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[4] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٢.
(٢) سورة الأنفال آية ٤٥.
(٣) سورة إبراهيم آية ٥٢.
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٥.
(٥) سورة الذاريات آية ٥٥.
(٦) سورة آل عمران آية ١٩١.

إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ﷺ: «قال الله تعالى فى الحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه، وإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وجبن عن العدو أن يقاتله، وبخل بالمال أن ينفقه، فليكثر ذكر الله» وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله» وعن جابر خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى مسجد المدينة، فقال: «إن لله سرايا من الملائكة تحول وتقف فى مجلس الذكر، فإذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا، فقالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «مجالس الذكر، اغدوا وروحوا فى ذكر الله، ومن كان يحب أن يعلم مترلته عنده، الله فلينظر كيف مترلة الله عند فإن الله يترل العبد حيث أنزله من نفسه».

قال عبد الله بن بشر: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن شرائع الإسلام كثرت عليَّ فمرنى بشىء أتثبت به، فقال رسول الله: «لا يزال لسانك رطب بذكر الله تعالى» وفى الخبر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: عبدى اذكرنى ساعة بالغداة وساعة بالعشى أكفك ما بينهما».

وقال ﷺ: «مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت» وقال ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم و لم يذكروا الله فيها» وقال

ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلسًا وتفرقوا منه ولم يذكروا الله فيه إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة» وقال ﷺ: «من أكثر ذكر الله أحبه الله تعالى» وقال ﷺ: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق» وقال ﷺ: «لذكر الله بالغداة والعشى خير من حطم السيوف فى سبيل الله تعالى» وقال ﷺ: «مجالس الذكر تتنزل عليهم السكينة وتحف بهم الملائكة وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله على عرشه» وقال ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون» وقال ﷺ أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون: إنكم مراءون.

وأنشد بعضهم:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم عند المناجاة بالعسر
وأجسامهم فى الأرض سكرى بحبه ... وأرواحهم فى نيل حجب العلا تسرى
عباد عليهم رحمة من الله أنزلت ... فظلوا عكوفا فى الفيافى وفى القفرِ
وراعوا نجوم الليل لا يرقدو له ... بإدمان تثبيت اليقين مع الصبرِ
فهذا نعيم القوم إن كنت فاهما ... وتعقل من مولاك آداب من يدرى
فاغرسوا إلا بقرب جميعهم ... وما ضجروا من مس بؤس ولا ضيرى
أديرت كئوس المداما عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاه ذى سكرى
هومهم جالت لهم حجب العلا ... وهم أهل ود الله كالأنجم الزهرى
فلا عيش إلا مع أناس قلوبهم ... تحن إلى التقوى وترتاح فى الذكرِ

وقال بعضهم: الذكر سيف المريد يقاتل به أعداءه من الجن والإنس، وتندفع به عنه الآفات التى تطرقه، وقال بعضهم: من ذكر الله حفظه الله.

ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت بوقت، فما من وقت إلا والعبد مطلوب فيه الذكر إما وجوبا وإما ندبًا بخلاف غيره من الطاعات.

وأنشد بعضهم:

وذكر الله يحسن كل وقت ... فحصل حاجة وارجع إليه
فمن ينفع أخاه لفعل خير ... مع الأذكار لم ينكر عليه

فينبغي للعبد أن يكثر منه فى كل حالاته فيستغرق فيه جميع أوقاته، وليس له أن يتركه لوجود غفلة، فإن تركه له أشد من غفلته فيه، فعليه أن يذكر، وإن كان غافلاً فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة، وهذا نعت العقلاء، ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور مع المذكور، وهذا صفة العلماء، ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عن سوى المذكور، وهذه مرتبة العارفين المحققين من الأولياء، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1] أى نسيت غيره، وأشار بعضهم إلى هذا المعنى فقال:

بذكر الله تبتهج القلوب ... وتتضح السرائر والغيوب
وترى الذكر أفضل كل شيء ... فشمس الذات ليس لها غيوب

فترك ذكر الغير هو أساس كل خير، فإن نسيت ما سواه به كنت ذاكرًا لله حقًا، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العيد محوًا فى وجود العيان.

وأنشد بعضهم فقال:

أيها الطالب معنى حسننا ... مهرنا غالٍ لمن يخطبنا
جسد مضنًى وقلب فى العنا ... وعيونا لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا ... فإذا ما شئت أدِّ الثمنا

---

(١) سورة الكهف آية ٢٤.

واقن إن شئت فناء سرمدا ... فالبقا يدنى إلى بفاك الغنا
واخلع النعلين إذا جئت إلى ... ذاك الحى ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعًا ... وأزل من بيننا من بيننا
فإذا قيل: لمن تهوى فقل ... أنا أهوى ومن أهوى أنا

وقال الواسطى مشيرًا إلى هذا المقام الغافلون فى ذكره أشد غفلة من الناسين لذكره، وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد وصف الله قلب أم موسى بمعنى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾[1] من كل شىء إلا من ذكر موسى فكادت أن تبدى به من غير قصد منها لذكره. ولا تتدبر بل كان تركها للتصريح بذكره صبرا بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين.

تنبيه: ذكر الحروف بلا حضور ذكر اللسان، وذكر الحضور فى القلب هو ذكر القلب، وذكر الغيبة عن الحضور فى المذكور هو ذكر السر، فأولى ما يكون الذكر أولا باللسان ثم يستولى على القلب ثم يستغرق بالمذكور.

وقال:

ولما رفعنا للستور بمجلس ... وضاءت لنا من عالم الغيب أسرارُ
وطافت علينا من هناك مدامة ... يطوف بها من حضرة الله خمارُ
تخامر أرباب العقول بحسنها ... فتبدى لنا عند المسرة أسرارُ
فلما شربناها بأفواه كشفنا ... أضاءت لنا منها شموس وأقمارُ
رفعنا حجاب العبد بالقرب عنوة ... وجاءت إلينا بالبشائر أخبارُ
وغبنا بها عنا ونلنا مرادنا ... ولم يبق منا بعد ذلك آثارُ

---

(١) سورة القصص آية ١٠.

وخاطبنا فى سكرنا عند صحونا كريم قديم فائض الجواد جبازُ
تجلى لنا حتى رأيناه جهرة بعين فؤاد لا تواريه أستار

قال الغزالى: الذكر حقيقة هو استيلاء المذكور على القلب وانمحاء الذكر فى الذكر لكن له ثلاثة قشور بعضها أقرب من بعض إلى اللب واللب وراء القشور الثلاثة، وإنما فضل القشر لأنه طريق إليه فالقشر الأعلى ذكر اللسان فقط فلا يزال الذاكر يوالى الذكر بلسانه ويتكلف استحضار القلب معه حتى يحضر، ولو تركه لاسترسل فى أودية الأفكار حتى يشارك القلب اللسان، فعند ذلك تمتلئ الجوانح والجوارح بالأنوار وينظر القلب من دنس الأغيار وينقطع الوسواس.

والذكر له مراتب، فيكون أولا باللسان ثم بالقلب ثم بالنفس ثم بالروح ثم بالعقل ثم بالسرور، ورزق الظاهر بحركة الأجسام، ورزق الباطن بحركة القلوب، ورزق الأسرار بالسكوت، ورزق العقول بالغنا عن السكوت حتى يكون العبد بينها كما مع الله، وليس فى الأغذية قوة فى الأرواح وإنما هى غذاء الأشباح وقوة الأرواح والقلوب.

ذكر علام الغيوب:

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] فإذا ذكرت الله بلسانك ذكر مع لسانك الجمادات كلها، فإذا ذكرته بقلبك ذكر مع قلبك الكون وما فيه من عوالم الله، وإذا ذكرته بروحك ذكر معك حملة العرش ومن طاف به من الملائكة الكروبيين والأرواح المقربين، وإذا ذكرت بسرك ذكر معك من فوقهم من العوالم إلى أن يصل الذكر بالذات العلية المقدسة المنزهة.

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

تنبيه: إذا ذكر الشخص بلسانه ونظر بقلبه إلى الله ودام على هذا الوجه يحدث فى أعضائه ومفاصله نوع وجع ويأخذ فى قلبه الوجع مع قليل حرق.

اللهم لا تحرق طالبيك من هذا الوجع، ووفقهم أن يشكروك عليه، وهذه الأوجاع منشؤها أن الذكر يقطع الذات والحظوظ الذى تمكث فى قلبه وأعضائه وجوارحه أيام الغفلة، فيكون هذا بداية نفوذ الذكر فى قلبه، فإذا زادت مواظبته على الذكر يصل أثر ذلك إلى الروح، فيذكر الروح ويجلس على سرير القلب بالخلافة، ويحكم على الخواص الظاهرة والباطنة فتنعزل النفس، وتكون من دعايا الروح ثم يصل أثر ذلك إلى السر.

ومن خواص الذكر إذا دام المريد عليه أن يصفى أثره إلى جميع الأعضاء ويظهر تصرفه فى الجوارح والأعضاء، فإذا وصل إلى عضو يحدث فيه ضربان، مثل ضربان العروق الناقضة، وتكثر الاختلاجات حتى لا يبقى منه جزء من لحمه ولا من عظمه إلا ويجد فيه حركة واختلاجًا، وقد تقوى مع الملازمة على الذكر حتى تصير أصواتا وكلاما، حتى يسمع العبد من جميع جوارحه وأجزائه أصواتًا، بل يسمع من قلبه لله أسماء وأذكارًا لم يسمعها قط من أحد، ولا رآها فى كتاب، بعبارات مختلفة وألسن متابعة، لم يسمعها ملك ولا آدمى.

وفى ذكر القلب والاستحضار يرد على الذاكر أحوال يتوهم أنه يربو ويعظم حتى كأنه أكبر من كل شيء، ثم يرد عليه من الحق قهر من الخوف فيرجع لحالة الأول، وهاهنا يخاف عليه من النفس والشيطان فيقصر فى الذكر بالتصريح فيرجع فتأخذ روزنة قلبه فى الانسداد كما أخذت فى الانفتاح بالتدريج حتى تنسيه بالكلية، فتكون تحت القهقر ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1] ومن عرف طريقًا ثم أعرض عنها عذبه الله عذابًا أليما لم يعذبه أحدًا من العالمين، وهذا أقبح من الامتناع من المشروع، إذ مثله مثل من كفر بعد أن آمن، فيجب على الطالب أن يكون ذكر الأم هذا نصب عينه ولا يصرف نفسه عنه طرفة عين، ويستوعب جميع أوقاته فى الذكر، ويجتهد أن لا يخلو نفس من أنفاسه من ذكر الله تعالى، وليتقرب إلى الله بأفضل الأعمال، وأفضلها عندهم أن يسلم نفسه إلى ذكر الله ويفنا فيه حتى يغيب عن جميع الأشياء، حتى عن نفسه، وعن الذكر بالمذكور.

وأنشد بعضهم فقال:

إذا لم يكن معنى حديثك لى يروى
فلا مهجتى تشفى ولا كبدى يقوى
نظرت فلم أنظر سواك أحبه
ولولاك ما طاب الهوى للذى يهوى
ولما اجتلاك الفكر فى خلوة الرضى
وعاينت قال الناس ضلت بك الأهوا
لعمرك ما ضل المحب وما غوى
ولكنهم لما عموا أخطئوا الفتوى
ولو شاهدوا معنا جمالك مثل ما
شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى
خلعت عذارى فى هواك ومن يكن
خلع بيع عذارى فى الهوى سره نجوى

---

(١) سورة طه آية ١٢٤.

ومزقت أثواب الرقاد تمتكا
عليك وطابت في محبتك البلوى
فما في الهوى شكوى ولو مزق الحشا
وعار على العشاق أن يظهروا الشكوى
وما علموا في الحب داء سوى الهوى
وعندى أسباب الهوى كلها أذوى

فإذا فنى الذاكر عن حسه ودواعى نفسه و لم يبق فيه غير الله صار القلب بيت الحق، فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبر ولا كلفة، فحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وأذنه التى يسمع بها، قد استولى العلى الجواد على الفؤاد فملكه وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه، وعلى الصفات من العبد فقلبها كيف شاء فى مرضاته، فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف، وتتبعه الأعمال بالطاعات لذة ونشاطًا.

ثم قال بعضهم فى المعنى:

ولما تصافينا المحبة بيننا فصرنا ومن نهوى كشيء واحدِ
لا زلت أقرب منه حتى صار لى بصرًا وسمعًا حيث كنت وساعدى
فإذا رأيت فلا أرى إلا به وإذا بطشت فلا يزال مساعدى
إن شئت شاء وإن أمرت فأمـ ـره أمرى لقد بلغت كل مقاصدى
فأنا الذى أهوى ومن أهوى أنا ما شاء يصنع حامدى ومعاندى

فإذا لازم الشخص الذكر استبدل الذكر الإنسى بالذكر القدسى، وترقى من ضيق اذكرونى إلى فضاء أذكركم، فيزداد بالشرب عطشًا بالقرب من المذكور شوقًا إلى القرب منه.

وفى المعنى قال:

يزيد ظمآن كلما زاد شربه من الحب فأعجب منه ظمآن بالشرب
وأعجب منه قربه لحبيبه يشفى ويزداد بالقرب اشتياقًا إلى القرب
فلا الشرب يروى ولا القرب به الـ ـقلب بل يزداد كربًا على كرب
وليس شفاء القلب إلا فناؤه بأحبابه فاسلك به مسلك الحبِّ

وحيث لازم الذاكر همته فى الذكر ولم يلتفت إلى الواردات ولا إلى الكرامات ولم يلاحظها نال المراد، وترد عليه علوم حتى يظن أنه فتح عليه بعلوم الأولين والآخرين، فإذا لاحظ ما يرد عليه من العلوم فهو سوء أدب فيستحق العقوبة، وعقوبته فى هذه الحالة أن يرد إلى حال الفهم، والفرق بين حال الفهم والعلم أن العلم وجود يرد على القلب من حيث العلم، والفهم نظر إلى ذلك العلم، فإذا نظر إلى الفهم فقد أساء أدبه، وعقوبته أن يرد إلى حال الغفلة.

ثم اعلم أنه لا يحصل لك الفتح إلا بالتخلق بآداب الذكر لأن كل عبادة خلت عن الأدب فهى قلة الجدوى، وأجمع الأشياخ على أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة، ولا يصل إلى حضرة ربه إلا أن صحبه أدب فى تلك العبادة.

ومن المعلوم أن مقصود القوم القرب من حضرة الله الخاصة، المصطلح عليها عندهم، ومجالسته فيها من غير حجاب، وأما الثواب فحكمه عندهم كحكم علف البهائم، قال تعالى: «أنا جليس من ذكرنى» يعنى ذكرنى على وجه الأدب والحضور، وقال ﷺ: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» والمراد بالمجالسة انكشاف الحجب للعبد أنه بين يدى ربه، عز وجل، وهو يراه ومطلع عليه فمتى أدام العبد هذا الشهود فهو جليس الله، فإذا غاب عن ذكر الشهود خرج من حضرة الله،

فافهم، فليس المراد بحضرة الله مكانًا مخصوصًا فى السموات أو فى الأرض، كما قد يتوهم الضعفاء، فإن الله لا يحويه مكان ولا يمر عليه زمان، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأنشد بعضهم فى ذلك المعنى:

ولما تجلى من أحب تكرما ... وأشهدنى ذاك الجمال المعظما
تعرف لى حتى تيقنت أننى ... أراه بعينى جهرة لا توهما
وفى كل حال أجتليه ولم يزل ... على طور قلبى حيث كنت مكلما
وما هو فى وصلى بمتصل ولا ... بمنفصل عنى وحاشا منهما
وما قدر مثلى أن يحيط بمثله ... وأين الثرى من رفعة البدر إنما
أشاهده فى صفو سرى فأجتلى ... جمالاً، تعالى الله عن أن يقسما
كما أن بدر التم ينظر وجهه ... بضوء غزير وهو فى أفق السما

وعد بعضهم للذكر ألف أدب، لكن قالوا يجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبًا، فمن لم يتخلق بها فيبعد عليه الفتح، فاعلم أن منها خمسة سابقة على الذكر، واثنى عشر حال الذكر وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فأما الخمسة التى هى سابقة على الذكر فأولها التوبة وحقيقتها الرجوع، يقال: تاب إذا رجع، وشرعًا: الرجوع إلى الله عن ما هو مذموم فى الشرع إلى ما هو محمود فيه.

وشرطها: الندم على ما عمل من المخالفات، والإقلاع فى الحين، والعزم على أن لا يعود.

فإن تعلقت بآدمى اشترط عليه رد المظالم إلى أهلها، وهى واجبة على الفور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾(٢).

فالتوبة تمحو الذنوب وتقرب المحب من المحبوب وتمحو ما قبلها.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(٣).

وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وفى الخبر: «قل للظالمين لا يذكرونى، فإن ذكرى عليهم وبال، أى: الذين لم يتوبوا من الأقوال والأفعال والأحوال.

وزاد بعضهم فى الشروط: ترك خلان السوء، وهم الذين كانوا يعصون الله معهم قبلها.

وقال ﷺ: «يحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالله» وقال ﷺ: «الجليس الصالح كصاحب المسك، إن لم يصبك منه أصابك من ريحه، والجليس السوء كصاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه».

وقال بعضهم: من جالس ابن صنعة جره إلى صنعته، فمن صحب أبناء الدنيا جذبوه إليها ومن صاحب أبناء الآخرة جذبوه إلى الآخرة.

ثم قال:

من عاشر الأشراف عاش مشرفا ... ومن عاشر الأنذال غير مشرفِ
أما تنظر الجلد الحقير مقبلا ... بالفم لما صار جلد المعلفِ

---

(١) سورة التحريم آية ٨.
(٢) سورة النور آية ٣١.
(٣) سورة الفرقان آية ٧٠.

وقال أبو الليث السمرقندى: من جلس مع ثمانية ابتُلي بثمانية.

فمن جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها.

ومن جلس مع الفقراء زاده لله الشكر والرضى بما قسم له.

ومن جلس مع الصبيان زاده الله الحقر والمزاح.

ومن جلس مع النساء زادد الله الحب والشهوة.

ومن جلس مع السلطان زاده الله الكبر وقسوة القلب.

ومن جلس مع الفساق زاده الله تسويف التوبة والجرأة على الذنوب.

ومن جلس مع العلماء زاده الله العلم والعمل به.

ومن جلس مع الصالحين زاده الله الرغبة فى الطاعة والزهد فى الدنيا.

فَلُذْ بالصالحين عسى أن تهتدى إلى الطريق المبين.

وقيل: التوبة الرجوع من الأقوال والأفعال.

والأحوال: أقوال الألسنة، وأفعال الجوارح، وأحوال القلوب، وإن شئت قلت: أقوال المضلين وأفعالهم وأحوالهم، لأن أقوالهم حجاب، وأفعالهم نفاق وتباين الصواب، وأحوالهم ذهاب تورث المقت والذل والعذاب من الملك الوهاب.

وأما أحكام التوبة: فقلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، والعزلة بالقلب عن الأنام، والمشى على شريعة خير الأنام.

وأما علامة التوبة: أن تحيى ما كان عندك ميتًا، وتميت ما كان عندك حيا، وتحضر من كان عندك غائبًا، وتغيب من كان عندك حاضرًا، تحيى القلب بالتوحيد، وتميت النفس عن هواها، وتغيب أهل الدنيا وتحضر أهل الموت، وتراقبه فى كل يوم وليلة، وتحذف الدنيا خلف ظهرك لأنها رأس كل خطيئة، فمن رجع

الذهب عن الزبل فهو لا يصدق فى توبته وكان ذو النون المصرى يقول: من ادعى حلاوة الذكر مع محبة الدنيا فكذبوه.

والتوبة هى الرجوع إلى الله كما أن بالموت رجوعًا بغير الإرادة، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾[1] وهو الرجوع من الذنوب كلها، والذنوب ما يحجبك عن الله من مراتب الدنيا والآخرة، فالواجب على الطالب الخروج من كل مطلوب سواه حتى الوجود وما حوى، كما قيل: وجودك ذنب، لا يقاس به ذنب، ولذا قال السيد البكرى: أستغفر الله من دعوى الوجود، وقال: يا مالك الملك أفنى فيك وجودنا.

الثانى: من الشروط الطهارة الكاملة من غسل أو وضوء.

الثالث: السكون والسكوت ليحصل الصدق فى الذكر بأن يشتغل قلبه بالله ويقول: الله، بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى له خاطر مع غير الله لخبر «إن الله غيور لا يحب أن يُذكر ويُذكر معه غيره»، ثم يتبع اللسان القلب.

الرابع: أن يستمد عند شروعه همة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ليكون رفيقه فى السير، لخبر: «خذ الرفيق قبل الطريق».

الخامس: أن يرى استمداده من شيخه هو حقيقة من رسول الله ﷺ، لأنه الواسطة بينه وبينه، لخبر: «رحمة الله على خلفائى» وهم الوسائط، وأما الاثنى عشر التى فى حال الذكر **أولها**: الجلوس على مكان طاهر كجلوسه فى الصلاة، **الثانى**: أن يضع راحتيه على ركبتيه، استحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة يتحلقوا، لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

---

(١) سورة الفجر آيتا ٢٧، ٢٨.

تَفَرَّقُواْ﴾[1] **الثالث**: تطييب مجلس الذكر، وكذا الثياب، بالروايح الطيبة، لخبر: «تطيبوا فإنى أحب الطيب، والله يحبه، وأخى جبريل» **الرابع**: الملبس الحلال النظيف ولو شراميط الكيمان، قال السيد البكرى فى الوصية: ويجلسه حلال، وأن يطهر باطنه بأكل الحلال، فإن الذكر، وإن كان نارًا يحرق الأجزاء الناشئة من الحرام ويأكلها إذا كان الباطن خاليًا من الحرام، والشبه تكون الفائدة أتم وأعظم فى التنوير، وأبلغ فى إلقاء النور على النور، وعند ملاقاة الحرام تذهب الإنارة فى التطهير، **الخامس**: اختيار المكان المظلم إن وجد من خلوة أو سرداب، **السادس**: تغميض العينين لتنسد طرق الحواس الظاهرة بسدها تنفتح حواس القلب الباطنة، **السابع**: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكرًا وهذا عندهم من آكد الآداب، فإن استغنى عما تقدم من الشروط لا يستغنى عن هذا الشرط، لأن المريد يترقى به إلى الأدب مع الله والمراقبة، لأن من لا شيخ له فإمامه الشيطان، **الثامن**: الصدق فى الذكر من غير رياء ولا عجب، بأن يستوى عنده السر والعلانية لخبر: «الإثم ما كان فى باطنك وكرهت أن تطلع الناس عليه» **التاسع**: الإخلاص وهو تنقية العمل وتصفيته من شوائب الرياء، وبالصدق والإخلاص يصل الشخص إلى مقام الصديقية لخبر: «ما دام العبد يصدق فى حديثه حتى يكتب عند الله صديقًا» **العاشر**: أن يختار من صيغ الذكر لا إله إلا الله، فإن لها أثر عظيم عند القوم لا يوجد فى غيرها من سائر الأذكار، وهى المسماة بذكر الأم، فإن فنيت أهويته وشهواته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله بلفظ الجلالة فقط، من غير نفى، وما دام يشهد من الأكوان فذكره بالنفى والإثبات واجب عليه فى اصطلاحهم لأنها

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣.

مفتاح حقائق القلوب وتقى السالك بها إلى علام الغيوب، ومن الناس من اختار موالاة الذكر بحيث تكون الكلمات كالكلمة الواحدة لا يقطع بينهما خلل خارجي ولا ذهني، كيلا يأخذ الشيطان منه، فإنه في مثل هذا الموضع بالمرصاد للذاكر لعلمه بضعف السالك عن هذا الأدوية لا سيما إذا كان قريب العهد بالسلوك، قالوا: وهو أسرع فتحا للقلب وتقريبًا للرب، ويكون قصد الذاكر ذكره تهليلات ما في القرآن جميعًا وتلاوتها، وقال بعضهم: تلاوة المد مستحسن مطلوب، لأن الذاكر في زمن المد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأفراد ثم ينفيها، ويعقب ذلك بقول: إلا الله، فهو أقرب إلى الإخلاص وعلى الذاكر أن يعرف عقائد الأمم وشروط صحتها.

الحادي عشر: استحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجة المشاهدة في الذاكرين، بشرط أن يعرض على شيخه كل شيء ترقى إليه من الأذواق ليعلمه كيفية الأدب فيه.

الثاني عشر: نفي كل موجود من الخلق حال الذكر، من القلب سوى الله، بقوله: لا إله إلا الله، فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر غيره، ولولا أن الشيخ له مدخل عظيم وباب مستقيم في تأديب المريد ما ساغ له أن يخيل شخصه بين عينيه، وإنما اشترطوا نفي كل موجود في الكون من القلب، ليتمكن لهم تأثير لا إله إلا الله بالقلب، ثم يسري ذلك المعنى إلى سائر الجسد.

ثم قال بعضهم في ذلك المعنى.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبًا فارغًا فتمكنا

وأجمعوا أن المريد يجب عليه أن يذكر بقوة تامة جدًا واجتهاد بحيث لا يبقى فيه متسع، ويهتز من فرقه إلى أصبع قدميه، وهي حالة يستدلون بها الأشياخ على

أن المريد صاحب همة تامة فيرجى له الفتح عن قريب، إنْ شاء الله تعالى، وكل من ليس له بداية محرقة ليس له نهاية مشرقة، وإنما وجب على المريد الجهر في الذكر، مع ما ذكر، لأن السر والهوينا لا يفيدان رقيًا، وقد جاء في الخبر: «اذكر الله حتى يقولوا: مجنون» فيجب على المريد خلع العذار، وترك الناس وراء ظهره.

قالوا: ويجب على أن يصعد لا إله إلا الله بالقلب.

اللحمة الكائن بين عظم الصدر والمعدة، ويميل رأسه إلى الجانب الأيسر مع حضور القلب المعنوى، وأن يحضر معنى الذكر كل مرة بقلبه، فإن كان الغالب عليه ظهور البشرية والوسواس فعليه أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله بقلبه، لا معبود إلا الله، ولصفاء القلب وطلب شيء من المعرفة والشوق والذوق فعليه أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله، وبقلبه لا مطلوب إلا الله، ولنفي الخواطر كلها يقول: لا إله إلا الله، وبقلبه: لا موجود إلا الله، لمشاهدته له وليحذر من اللحن في لا إله إلا الله، لأنها من القرآن، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1] وقال ﷺ: «رُب قارئ والقرآن يلعنه» فهي كلمة من القرآن يجب تجويدها على تاليها ومعرفة مبانيها ومعانيها، فيمد على اللام بقدر الحاجة، ويحقق بالهمزة المكسورة بعد، ولا يمد عليها أصلاً، ويفتح هاء «إله» فتحة خفيفة ولا يفصل بين الهاء وبين «إلا الله» وإياك أن تتهاون في تحقيق همزة «إله» فأنت إذا لم تحققها قلبت ياء، وكذا همزة «إلا» وتسكن آخر لفظ الجلالة، وسيأتي مزيد تحقيق لذلك.

قال سيدى يوسف العجمي: وما ذكروه الأشياخ من هذه الآداب للذكر محله في المريد الصاحي المختار المكلف بالشرع، أما مسلوب الاختيار فهو مع ما

---

(١) سورة المزمل آية ٤.

يرد عليه من الأسرار والأذواق واللوامع والأنوار، فقد يجرى على لسانه الله الله، هو هو، أو لا لا، أو آه آه، أو عاعا، أو آهــ آهــ، أو زيى بى، أو بوا بوا، أو صوت بغير حرف أو اختيار، أو انصراف أو بكاء أو صراخ أو نحوه، فآدابه عند ذلك التسليم للوارد يتصرف كيف يشاء، فإذا انقضى من الوارد فآدابه السكوت من غير تعقل ولا تصنع، مع السكوت ما استطاع، متلقيا للوارد، فهو تحت حكم الوارد لا تحت حكم نفسه وحظه، وقد تتفق هذه الأنواع للمريد الصادق فى مجلس واحد فتنقلب عليه أحوال الواردات، وهو ساكن لا يتحرك لشجاعته.

وهذه الآداب تلزم الذاكر بلسانه مدة عمارة باطنه، أما الذاكر بقلبه فلا يلزم من ذلك شيء.

فإن قيل: الذكر مفرد أنفع أو جماعة.

فالجواب: أنه منفرد أنفع لأصحاب الخلوة، وجماعة أنفع لمن لا خلوة له.

فإن قيل: هل الذكر جهرًا أنفع أو السر.

فالجواب: الجهر أنفع لمن غلبت عليه البشرية والوسواس والقسوة من أصحاب البدايات، والسر أنفع لمن غلبت عليه الجمعية، وشاهد الوحدة فى الكثرة والكثرة فى الوحدة من أصحاب السلوك.

فإن قيل: إفراد لا إله إلا الله أفضل أم بزيادة محمد رسول الله.

فالجواب: إفراد لا إله إلا الله أفضل للسالكين حتى تحصل لهم الجمعية مع الله بقلوبهم، فإذا حصلت فذكر محمد رسول الله معها أفضل.

وبيان ذلك أن محمدًا رسول الله إقرار تكفى فى العمر مرة واحدة، والمقصود من تكرار التوحيد كثرة الجلاء للقلب فيزول الران والشبه والشرك الخفى ورؤية الأغيار بكثرة التوحيد، فإذا زال ذلك حصلت له الجمعية والمعية مع الله ورسوله،

من غير فرق، فيرى الوحدة ويرى فضلها لا غير، فيحصل له كمال المشاهدة، حينئذ يصلح ذكرهما معًا.

وأما الثلاثة الآداب التى عقب الذكر فأولها: أن يسكن إذا سكت، ويخشع ويحضر مع قلبه مترقبا لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده فى لحة أكثر ما تعمره المجاهدة والرياضة فى ثلاثين سنة، وذلك أنه إذا كان الوارد وارد زاهد فيجب عليه التمهل فيه حتى يتمكن فيه الزهد، ويصير بتنغص إذا فتح عليه بشىء من الدنيا، عكس ما كان عليه أولاً، أو ورد عليه وارد تحمل أذى فيجب عليه التمهل فيه حتى يتمكن ويستحكم ويصير إذا قام عليه الوجود كله بالأذى لا تتحرك منه شعرة كما لا يتحرك الجمل من نفخ ناموسة، لأنه شاهد الأغيار أمثال أفياء فى ذلك الوارد، ورأى الله للكل فاعلاً، وهكذا من وارد علم وفتح وحب ومراقبة، بخلاف ما إذا لم يترقب حصول شىء من ذلك، فإنه لا يحصل له تحقق بذلك المقام الذى أتى به الوارد، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾(١) فهذه المسكنة وقت إخراج الصدقات للفقراء والمساكين لا الأغنياء والمتكبرين، فإذا لم يكن عند الذاكرين اشتياق وافتقار وطلب شيئا لا يعطاه.

قال الغزالى ولهذه المسكنة ثلاثة آداب: أن يستحضر العبد أن الله مطلع عليه وهو فى قبضته وبين يديه.

وأن يجمع حواسه بحيث لا يتحرك منه شعرة واحدة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة، وأن ينفى الخواطر كلها ويجرى معنى الله على قلبه.

(١) سورة التوبة آية ٦٠.

وهذه الآدابُ لا تتم المراقبة إلا بها.

ثانيها: أن يلزم نفسه مرارًا من ثلاثة أنفاس إلى سبعة إلى أكثر بحسب قوة عزمه، وهذا كالجمع على وجوبه عند الأشياخ حتى يدور الوارد فى جميع عوالمه، فتنور بصيرته، وينقطع عنه خواطر النفس والشيطان، وتكشف له الحجب.

ثالثها: منع شرب الماء عقب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفى تلك الحرارة.

فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب، فإن نتيجة الذكر لا تظهر إلا بها.

تنبيه: إذا كان الطالب يذكر مع الجماعة وأراد أن يدخل مجلس الذكر فينبغى له أن يقضى مصالحه الشاغلة له عن الحضور فى الذكر، ويلبس أحسن ثيابه، والأبيض أفضل، ويأخذ الطيب والسواك قبل حضوره ويكون على طهارة كاملة ويصحب شيئًا من العطريات فى فمه إذا لم يكن صائمًا، إذا دخل محل الذكر وكان مسجدا صلى ركعتى التحية، فإذا لم يكن الذكر قائمًا قبَّل يد أستاذه وسلم على إخوانه، ثم يجلس متأدبًا مطرقًا صامتًا أو مشغولا بالذكر سرا، وهو أكمل، وإن رأى الذكر قائمًا قال فى سره: دستور يا أهل الطريق، دستور يا أهل القدم، ودخل ثم أخذ فى الذكر، وإذا أرادوا انفتاح الذكر أولا استأذنوا بقلوبهم أصحاب الطريق والقدم، بعد الإذن من الله ورسوله، ويأخذ فى الذكر بسكينة وبوقار وخشوع، بصوت متوسط على الهوينا من غير تمطيط، وعليهم مراعاة الوفاق فى الأصوات علوًّا وخفضًا، وتحسين قراءة الورد إن كان بالوقف والسجعات، لأن فى ذلك نشاطا للنفس ولذة للروح وراحة للسر وقهر للشيطان وفرارًا، ولا يكثر أحدهم الالتفات ولا يعبث بلحيته ولا يلعب بيده ولا بشىء من ثيابه، لأنه مجلس الله، عز وجل، فإن لعب وعبث طرد من ذاك المقام النادى، ولا ينظر بعضهم

بعضًا، لأنه مانع من الحضور، بل يغمض عينيه، ولا بأس بالهز يمينًا وشمالاً، إن كان الذكر بالأم، بلا إله إلا الله، وإن كان بالجلالة رفع رأسه إلى فوق، وضرب بصدره، كما يأتي، وينبغي أن يكون معشوقه مثل محرمة يمسح فيها ما يعرض له من بصاق ونحوه، ولا يخرج من المجلس لذلك إلا أن يحصر ببول أو غائط أو ريح، وإذا أراد المقدم عليهم أن يفتح لهم الذكر أو يسكنهم أو يرفع الذكر أو يخفضه لهم قال: دستور يا الله، بقلبه، وعليه أن يحذر من التمطيط، والعجلة لشديدة لأنها تخرج الذكر عن حده الشرعي.

والاقتصار في المجلس أولى من التطويل، إذ المجلس إذا طال كان للشيطان فيه نصيب ما لم يحصل خشوع ولذة، فلا يقطع ذلك عليهم فإذا فهم ما بهم من الملك استأذن بقلبه وختم لهم المجلس، فيقول: اللهم إن ذكرك لا يمل منه، وإنما عبيدك هؤلاء منهم الضعيف وذو الحاجة.

وأريد أن أختم بهم فأذن، وإذا قرأ القارئ أو قال الحادى شيئًا من كلام القوم أطرق رأسه كل منهم، وسكنوا أعضاءهم، وألقوا كليتهم لسماع ذلك، وأعرض حاله على ما يسمعه متأولاً ذلك بما يليق به، فإن رأى ذلك موافقًا لحاله حمد الله بقلبه، وإلا أخذ في الاستغفار وطلب التوبة بالقلب، ولا ينهنه ولا يتصعب ولا يهتز ولا يتأوه ولا يقول شيء لله ولا عد القول ولا نحو ذلك فإنه سوء أدب مع الله ورسوله، خصوصًا بحضرة الشيخ، وإذا قال الشيخ شيء من ذلك فإنه لمصلحة أرادها فلا يُقتدَى به في ذلك ولا يقول مثل قوله، ولا ينبغي للشيخ أن يقر أحدًا على الصراخ بل يزجرهم عن ذلك كله، إلا إن تحقق أنه عن غلبة قوية وحالة صادقة، ويحرصون أن يكون الذكر على وتيرة واحدة وطريقة مستقيمة، وليس لأحدهم أن يغير الطريقة من حدر إلى ترتيل وعكسه، مثلا، بل حتى يرسم الشيخ أو المقدم عليهم وكذا في الابتداء والختم.

البـــاب الثالـــث

في بيان الطرائق الموصلة إلى الله تعالى وأركانها
وما يتعلق بذلك كله، وكيف السلوك
إلى ملك الملوك حسب ما قالوه
على الوجه الذى ذكروه

اعلم أن المراد بسلوك الطريق تتبع أخلاق النبى ﷺ والعمل بها، والمريد الواصل إلى الله تعالى هو الذى تخلى عن أوصافه الذميمة وتحلى بالأوصاف الحميدة.

فالأوصاف الذميمة كالجهل والغضب والحقد والحسد والبخل والتعاظم والتذكير والعجب والغرور والرياء وحب الجاه والرياسة وكثرة الكلام والمزاج والتزين للناس والتفاخر والضحك والخيلاء والتقاطع والتهاجر وتتبع العوارت والأمل والحرص وسوء الخلق، وكل ما نهى عنه الشارع.

والأوصاف الحميدة كالعلم والحلم وصفاء الباطن والكرم والتذلل والرفق والتواضع والصبر والشكر والزهد والتوكل والمحبة والشوق والذوق والحياء والتفكر والشفقة والرحمة للخلق والحب فى الله والبغض لله والتأنى فى الأمور والبكاء والحزن وحب الخمول والعزلة وسلامة الصدر والنصح وقلة الكلام والخشوع والخضوع وانكسار القلب وحسن الخلق والتخلق بما ورد به الشارع من الصفات المحمودة، فإذا اتصف المريد بأوصاف الكمال وخلص من قبيح الفعال فهو التقى قد وصل إلى الملك المتعالى من أصحاب الأحوال الذين قطعوا المنازل والأهوال وترقوا مقامات الرجال، فهم النطف الطاهرة أصحاب الاستعدادات الكاملات والطباع السليمة الذين لا رغبة لهم فى لذة الدنيا ولا فى نعيم الآخرة قلوبهم متوجهة إلى مليكهم لا يسكنون إلا إلى ذكره ولا يتقوتون إلا بتلاوة اسمه، فأول شىء يلزم مريد الطريق معرفة الله عز وجل بأن يعرف ما يجب فى حق مولانا جل وعز، وما يستحيل وما يجوز، وكذا يجب عليه أن يعرف مثل ذلك فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم باب الطهارة والصلاة والصيام والتيمم وما يحتاج له السير ثم يتعلم من القرآن ما لا بد منه ولا غناء فى كل حال عنه مقتصرا

منه على قدر الكفاية ترجع عن الذنوب ويجدد توبة بشروطها المعتبرة ويطهر قلبه من نحو الكبر والعجب والحسد وسوء الظن متحققا بما يمكنه من أصول طريقة ومن ذلك إسقاط التدبير وكمال التسليم والرضى عن الله فى كل ما يرد عليك من نحو فقر أو سقم أو إيذاء ويقطع العلل التى تنقص العمل وتبطله، والخروج عن الله والعلائق والتحقق بالسنة قولا وعملا، ومن ذلك الملازمة على صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين المغرب والعشاء وصلاة الليل والوتر والسنن الراتبة، وما دام فى حال بدايته لا يفطر يومًا واحدًا إلا لضرورة، ولا يأكل فى اليوم والليلة أكثر من مرة ولا يمكث ساعة من ليل أو نهار على حدث البتة وإذا مشى فى الطريق لا يتعدى بصره محل القدمين ويزيل ما فى الطريق من الأذى، ويبدأ بالإسلام، ولا يهجر من جفاه ولا يطعن فى أعراض الناس رثيث الثوب ذو جيب ويعين ذا الحاجات ولا يدخل الحمام إلا لضرورة لازمة ولا يدخل مداخل التهم، وعليه بصيانة عرضه، ولا يصلى الفرض إلا بجماعة فى أول الوقت بأذان وإقامة ولا ينام الثلث الأخير من الليل، لأنه دأب الصالحين، ولا ينام ليلة الجمعة مطلقًا بل يحييها بقراءة الكهف والصلاة على النبى ﷺ، ويتحمل الأذى من الناس كما تحملت الأولياء والأنبياء من قبله، ولا يؤذى هو أحدًا، ولا يدعو على أحد، بل يفوض أمره إلى الله، كأن ما أحدًا أذاه، ولا يضع عمامته تحت رأسه، ولا يفرش ما يوضع علي الكتف تحته، ولا يبول فى غير المعد لقضاء الحاجة حيث وجد غيره، وما يعد للعبادة، يتره عن أحوال العادة، ولا يرمى سبحته بالأرض، بل يعلقها فى عنقه أو على وتد وإن كان له كسب حلال لزمه القيام به لنفسه وعياله، ولا يعمل فوق كفايته، ولا يقصد التصدق بما زاد عنه، بل سلامة الدين مقدمة على ذلك، ويتورع عن كل ما فيه شبهة، وإذا كثرت منه العبادة واشتهر أمره بالصلاح

وكثر الناس عليه بالزيارة والتبرك به قبل كماله وبلوغه الطريق لزمه الفرار منهم، ويعمل على الخمول، ويحرص أن لا يعرف حاله غير ربه، ولا يجيب دعوة أحد إلا أن تكون واجبة، ولا يزور أحدًا ولا يأكل من وليمة مطلقًا، وإذا أكل ما فيه شبهة استقاء، ولا يلزم أن لا يُرَى إلا فى المسجد، أو عيادة مريض، أو جنازة، أو ما كان فيه نفع له وللمسلمين، وعليه أن يقدم مصالح الناس على مصالح نفسه المندوبة، ويجعل أصله الذى بنى عليه عمله دوام الشهود، وتوحيد الأفعال بأن المحرك والمسكن هو الله، والتحقق بالذل والعجز والانكسار وملازمة الخشوع والخضوع والدموع وصدق الولوع بشدة الطلب، وإيثار المجاهدة ويزال كذلك والله يؤيده ويهديه ويوفقه إلى ما يرضيه.

ثم اعلم أيها الطالب للأشراف على منازل الأشراف والاطلاع على حقيقة نفسه والتطهر من وابل مدد فيض قدسه أن القوم بنوا الطريق على أربعة أركان: الجوع والسهر والصمت والعزلة، فلا وصول إلى الله بدونها.

وقد نظمت ذلك فى قول بعضهم:

إن الطريق لها أركان واجبة ... فلا وصول بغير الركن للرجل
فهاكها أربعًا قالت مشايخنا ... جوع وسهر وصمت عزلة فعل

وزاد بعضهم على ذلك أربعًا أيضًا: دوام الذكر، ودوام الفكر، ودوام الطهر، وربط قلب المريد بالأستاذ، وهذا من آكد الأركان والشروط عند القوم.

ونظمها شيخ شيخنا السيد البكرى فقال:

شروط طريقنا المرضى عدت ... ثمانية فلازم من حواها
ولازم وردها والهض بعزم ... لترقى فى مراقى من عناها
وتصبح واحدًا فى الناس فردًا ... جليلا من سنا باهى سناها

فقل: صمت وجوع ثم السهر بليل الوصل. كى يجنى جناها
دوام طهارة ودوام ذكر ونفى خواطر فارقى ذراها
وربط مريد ذو قلب وجد بقلب الشيخ فاحذر ما تناها

فأول الأركان المذكورة الجوع، وهو أعظمها، لأن غيره ينشأ عنه، على حد قوله ﷺ: «الحج عرفة» والجوع أساس كل خير قال ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش، فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله» وقال ﷺ: «أفضلكم عند الله منزلة أطولكم جوعًا وتفكرًا، وأبغضكم عند الله تعالى كل أكول نوام شروب» وقال ﷺ: «سيد الأعمال: الجوع، وذل النفس لباس الصوف» وقال ﷺ: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع، يموت إذا كثر عليه الماء» وعن المقداد بن معديكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن بها صلبه، فإن كان ولا بد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث لنفسه» وقال ﷺ: «جوعوا تصحوا» وقال القشيرى: لا شىء ضرٌّ على الآخرة من الأكل، ولا أنفع لها من الجوع، ولا شىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال، وأن الله يبغض من الحلال شيئين: الطلاق والشبع، وعن بعضهم: من جاعت نفسه انقطع عنه الوسواس، وعن بشير الحارث قال: الجوع والعطش يورثان صفاء القلب، ويميتان الهوى، ويثمران العلم الدقيق، وقال سليمان الدارانى: مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع، وقال بعضهم: لئن تركت لقمة من عشائى وأنا محتاج إليها خير من قيام ليلة إلى الصباح، وقال بعضهم: كل الخير مجموع فى خزائن الجوع، وقال لقمان لابنه: يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرس لسان الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال إبراهيم بن أدهم: خدمت ثلاثمائة ولى، وكل منهم يوصينى بأربعة أشياء: **أحدها**: من أكثر من الأكل لم يجد لطاعة الله لذة، **ثانيها**: من أكثر من النوم لم يجد فى عمره بركة، **ثالثها**: من أكثر من مخالطة الناس لم تقم له عند الله حجة، **ورابعها**: من أكثر من الوقوع فى أعراض الناس لم يخرج من الدنيا على التوحيد.

وقال يحيى بن معاذ: فى نفس ابن آدم ألف غصن من الشر، كلها فى يد الشيطان، فإذا جوع بطنه وأخذ حذره وريض نفسه يبس كل غصن واحترق بنار الجوع، وفر الشيطان منه، وقال رجل لابن بشير علمنى العبادة، فقال: ألست تأكل؟ قال: نعم، قال: كيف تأكل؟ قال: آكل حتى أشبع وأكتفى، قال: هذا أكل البهائم معدومات العقول، اذهب عنى وتعلم الأكل ثم تعلم العبادة.

وللشيخ أن يعامل الكاملين معاملة السالكين بالجوع وإن لم يكن يلازم للمحققين فهو مورثهم أسرارًا علية، وأما السالكون فهو عليهم كالأمور الفرضية، قال بعضهم: لو وجد المريد الجوع فى السوق لوجب عليه أن لا يشترى غيره، سئل بعضهم: هل نجد الطب فى كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، قد جمع الله الطب كله فى آية واحدة بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1] يعنى أن الإسراف فى الأكل يتولد منه الأمراض والأوجاع.

ويقال: فى كثرة الأكل ست خصال: **الأولى**: يذهب خوف الله من القلب، **الثانية**: يذهب رحمة المخلوقين منه **الثالثة**: يثقل الطاعة على البدن، **الرابعة**: إذا

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

سمع كلام الحكمة لا يرق قلبه ولا يؤثر فيه خوف الله، **الخامسة**: إذا تكلم بالوعظ لا يقع فى قلوب الناس، **السادسة**: يهيج الأمراض.

وقال بعضهم: فوائد الجوع ثلاث عشرة فائدة: صفاء القلب ورقته، والاستلذاذ بذكر الله وعبادته، وانكسار الشهوة، وذكر جوع جهنم، وتيسير المواظبة على العبادة، ودفع النوم والشيطان والفراغ من قضاء الحاجة الإنسانية، ودفع الأمراض الشاغلة عن الطاعة وخفة المؤونة والاكتفاء بالقليل وإمكان الإيثار بالفاضل وإيقاع الوعظ فى قلب السامع.

وأوصلها بعضهم إلى خمسين فائدة، والمطلوب من ذلك الحالة الوسطى بين الإفراط والتفريط ولذلك قالوا بتقليل الطعام و لم يقولوا بترك الطعام، فيكون قدر ثلث البطن فأقل، قال ﷺ: «ثلث للطعام فمن زاد فإنما يأكل من حسناته فالنافع فى الطريق أن لا يأكل المريد حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع وإذا كان فى وقت الغداء شبعانا فلا يتعشى، وإذا تعشى لم يتغدوا، وقد رأى النبى ﷺ عائشة وهى تأكل مرتين فى اليوم، فقال لها: «أنت يا عائشة لم تجدى لك شغلا غير بطنك، يا عائشة الأكل مرتين فى اليوم إسراف، والله لا يحب المسرفين» فخرجت عما كانت عليه فالمطلوب عند القوم تعليل الطعام وترك ألوان الطعام فلا يجمع بين أدمين أبدًا، وقد تعسر الحالة الوسطى على المبتدى فلا تطاوعه نفسه أن يفعل ما ذكرناه لألفة ما هى عليه من الحظوظ والخبث فحينئذ على المريد ظلمها والتعدى عليها بأكل حقها المندوب لها حتى ترضى بالذى ذكرناه، وذلك بأن يقلل الأكل بالكلية ويحملها ما لا تطيق من الأعمال الشاقة، وإن كان هذا خارجًا على الإنصاف إلا أنه يفعل ذلك لأجل إصلاحها ورجوعها للحق طوعًا أو كرهًا، ولما كل الشرعى قال ابن الفارض مشير إلى هذا المقام:

ونفسى كانت قبل لوامة متى أطعها عصت وأعصى كانت مطيعتى
فأوردتها ما الموت أيسر بعضه وأتعبتها كيما تكون مريحتى
فعادت ومهما حملته تحملت منى وإن خفت عنها تأذتى

وقد حقق شروط الجوع سيدى محيى الدين بن العربي فقال: الجوع جوعان: جوع اختيارى وهو جوع السالكين وجوع اضطرارى وهو جوع المحققين فإن المحقق لا يجوع نفسه بل يقلل أكله، إن كان فى مقام الأنس، وإن كان فى مقام الهيبة كثر أكله، وكثرة الأكل للمحققين دليل على صحة سطوات أنوار الحقيقة على قلوبهم، بحال العظمة من مشهودهم، وقلة الأكل منهم دليل على صحة المحادثة بينهم بحال المؤانسة من مشهودهم، وكثرة الأكل للسالكين المبتدين دليل على بعدهم من الله وطردهم عن بابه واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم، وقلة الأكل لهم دليل على السنفحات الإلهية والجوع بكل حال ووجه سبب داع للسالك والتحقق إلى نيل عظيم الأحوال من السالكين والأسرار للمحققين ما لم يفرط فإن أفرط أدى إلى الهوس وذهاب العقل وفساد المزاج اللهم اكفنى شر الجوع ودواعيه المهلكان للدين والدنيا يا رب العالمين.

واعلم أن لا سبيل للسالك إلا الجوع المطلوب تنيل الأحوال إلا عن أمر شيخ يرضيه وأما وحده فلا سبيل إلى ذكره ثم قال وللجوع حال ومقام عظيم فحاله الخشوع والخضوع والمسكنة والذل والانكسار وعدم الفضول وسكون الجوارح وعدم الخواطر الرديئة والوسواس وهذا حال جوع السالكين وأما حال جوع المحققين فالرأفة والصفا والمؤانسة والتنزه عن الأوصاف البشرية بالعزة الألهية الصمدانية.

فهذا فائدة جوع صاحب الهمة لا جوع للعامة فإن جوع العامة إذا جاعوا يكون لصلاح المزاج وتنعم البدن بالصحة لا غير، فتدبر كلام الأستاذ فى هذا المقام تبلغ المرام وينبغى أن يكون الجوع المذكور صومًا بالوجه الشرعي لأن الصوم منير للعبادات ومفتاح الطاعات والقربات.

قال حجة الإسلام، فى بداية الهداية: لا ينبغى للشخص أن يقتصر على صوم رمضان فيترك التجارة بالنوافل فيحرم العالية فى الترقى ويحرم درجات الفردوس، فيتحسر إذا نظر مقام الصائمين، وهم كالكواكب فى أعلى عليين وليكثر منه ما استطاع، قال ﷺ: يقول الله تعالى: «كل حسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به».

وقال ابن الجوزى فى روض الصائمين وروح القائمين عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان فى العبد يوم القيامة، يقول الصيام: يا رب منعته الطعام والشهوة، فشفعنى فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعنى فيه، فيشفعان» رواه الطبرانى، وقال ﷺ: «الصيام جنة وحصن حصين من النار» وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا» رواه الطبرانى، وقال ﷺ: «لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم، والصيام نصف الصبر» رواه ابن ماجه، وعن أبى أمامة الباهلى قال: قلت: يا رسول الله مرنى بعمل، قال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له» رواه النسفى، وفى رواية النسائى قال: قلت: يا رسول الله مرنى بشيء ينفعنى الله به، قال: «عليك بالصيام، فإنه لا مثل له» وفى رواية: دلنى على عمل أدخل به الجنة، قال: «عليك بالصيام، فإنه لا مثل له» فكان أبو أمامة لا يرى فى بيته الدخان نهارًا إلا أن يترل بها ضيف، وقال ﷺ: «إن فى الجنة بابًا يقال له: الريان،

يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم» وقال ﷺ: «إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد» وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية فى البحر فبينما هم كذلك وقد رفعوا الشراع إذ هتف بهم هاتف يا أهل السفينة قفوا حتى أخبركم بقضاء الله، قضى الله على نفسه أنه من عطّش نفسه لله فى يوم ما كان حقًا على الله أن يروِّيه يوم القيامة، فكان أبو موسى يتوخى اليوم الشديد الحر الذى يكاد ينسلخ جمرا فيصومه، وعن حذيفة ﷺ: أسندت النبى ﷺ إلى صدرى فى مرضه فقال لى: «من قال: لا إله إلا الله، وختم له بها دخل الجنة» وفى رواية: «يا حذيفة من ختم له بصيام يوم يريد به وجه الله أدخله الله الجنة» وقال ﷺ: «ثلاثة حق على الله أن لا يرد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والمظلوم حتى ينتصر، والمسافر حتى يرجع».

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ من صام يومًا فى سبيل الله زحزح الله عن وجهه النار سبعين خريفا، والمراد بسبيل الله: ابتغاء وجه الله، وقيل: الجهاد لله، وفى رواية: «من صام يوما فى سبيل الله فى غير رمضان بعد من النار مائة عام مسيرة الجواد المضمر» رواه أبو يعلى، وصوم الدهر سنة لمن يطيقه، ولم يترك بسببه حقًا عليه، إلا صام وأفطر، لما روى عن عبد الله بن عمر وقال: كنت أصوم الدهر وأقرأ القرآن كل ليلة فأرسل إلىَّ النبى ﷺ فقال لى: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟» فقلت: بلى يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «إن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام» فقلت: يا رسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك، فقال: «إن لزوجك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا فأعط كل ذى حق حقه فصم وأفطر وأت أهلك» ثم قال: «فصم صوم داود نبى الله فإنه كان أعبد الناس» قال: فقلت: وما صوم داود يا نبى الله؟ قال: «كان

يصوم يومًا ويفطر يومًا، واقرأ القرآن فى كل شهر» قلت: يا رسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك، قال: «اقرأه فى كل عشرين» قال: إنى أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه فى كل عشر» قال: يا نبى الله إنى أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه فى كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجتك عليك حقًا، ولربك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا» وقيل: الصائم نومه عبادة، ونفسه تسبيح، ودعاؤه مستجاب، وعمله مضاعف، وقال بعض السلف: الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق، والصدقة تأخذ بيده فتدخله إلى الملك، والصيام يبلغه إلى أعلى الدرجات، وقال بعضهم: يقال للصائمين يوم القيامة: كلوا فقد جعتم حين شبع الناس، واشربوا فقد عطشتم حين روى الناس، واستريحوا فقد تعبتم حين استراح الناس، فيأكلون ويشربون والناس فى هول الموقف، وروى بعضهم فى تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[1] أنها أيام الصوم، قال الشبلى ﷺ: كنت فى قافلة، فطلع عليها عرب فأخذوا القافلة فمررت عليهم وهم يأكلون من متاعها، ورأيت كبيرهم والمقدم عليهم لا يأكل وامتنع من ذلك، فسألته عن ذلك فقال: إنى صائم، فقلت له: لم تقطع الطريق وتصوم؟ قال: إنى تركت للصلح موضعًا بينى وبين ربى، ثم بعد مدة رأيته فى المطاف وهو طائف فوق رءوس الناس، فقلت: هو؟ قال: نعم، انظر يا شبلى كيف الصيام أصلح بينى وبينه، ثم أنشد فقال:

أفلح الزاهدون والعابدون إذ لولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه فمضى ليلهم وهم ساهرونا

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٤.

خيرتهم محبة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا
لم يرتدوا عن بابه من براح قد شجاهم بعشقه يعرفونا

وينبغى أن يكف لسانه فى الصوم عن الحرام كالغيبة والنميمة، والأيمان الكاذبة والطعن فى أعراض الناس.

وبالجملة كل ما تركه الناس فاتركه، وصون النظر عن المحرمات، فقد ورد فى الخبر: «خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة والنظر إلى المحرمات بشهوة» والمراد بإبطال الثواب والشتم والسب كذلك، وقال ﷺ: «إنما الصوم جُنة، فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقفل إنى امرؤ صائم» ولا تظن أن الصوم ترك الطعام والشراب والوقاع، بل تمامه كف الجوارح كلها عما يكره الله، فقد قال ﷺ: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله فى نهارك عند فطرك كل ليلة لأجل صيامك فلا فرق أن تستوفى ما تأكله دفعة واحدة أو دفعتين، وإنما المراد كسر شهوتك لتقوى على العبادة، فإن أكلت عند فطرك ما تعتاده فى عدم صومك فلا فائدة فى صيامك، وتثقل عليك أعضاؤك، وتفتر عن العبادة، وما من وعاء» أبغض إلى الله تعالى من بطن ملئت من حلال.

قال شيخنا البكرى: ولا يدلك أيها السالك مع ذلك من الرياضة، وهى التخلق بالأخلاق المحمدية والصفات القرآنية والانسلاخ من الأوصاف الذميمة النفسانية الشيطانية، وأما إذا كان مجرد جوع أو ظمأ فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه، والرياضة خلق من الأخلاق الصمدانية فلذا قال فى الصوم: «الصوم لى» ولأن بالجوع يملك المريد نفسه بعد أن كانت مالكة له، فإنها ما

اهتدت ورجعت إلى الله إلا بعد أن ألقيت فى بحر الجوع مرارًا، فإذا جوّعها الطالب تذكرت العهد السابق فترجع منقادة بعد الإباية، ذليلة بعد العزة والغواية، فإذا كان الجوع والظمأ من أعظم المجاهدة للنفس، فكان ينبغى أن يكون ذلك بالتدريج شيئًا فشيئًا وكذا بركه للماء حتى إن بعضهم يزن غذاءه كل ليلة عند الفطر وينقص منه درهمًا أو أكثر إلى أن يصل غذاءه فى اليوم والليلة إلى تمرة أو زبيبة أو لوزة وتكتفى بها المعدة الإنسانية وتنقضى حاجتهم بذلك، ولا يتضرر الجسد من ذلك وبعضهم يزن غذاءه بخشبة جميز خضراء وينقص كل يوم بقدر ما ينشف منها، فإذا نشفت أخذ ثقلها خضرة، وفعل ما تقدم، وهكذا حتى يتمرن على ما تقدم، وكذا الماء حتى يصير يمكث الأيام الكثيرة لا يشرب.

وقال بعضهم: إذا أردت أن تعرف هل نفسك تقدر على الزهد فى الدنيا وإلا فلا، فازهد فى الماء، قال: قدرت على ذلك قدرت على الزهد فى الدنيا.

قال بعضهم فى ذلك المعنى أبياتًا للناقد البصير:

تركت فضول النفس حين رددتها إلى دون ما يرضى به المتعففُ
وأملت أن أجرى خفيفًا إلى العلا فإن رمتم أن تلحقونى فخففوا
لا أستبدلن النفس حتى أصونـــها وتنقاد للطاعات حقًا وتعرفُ

قال بعضهم: اعلموا أننا جربنا العطش فوجدناه من الشهوة الكاذبة، وجربه غيرنا فوجده كذلك، وإذا دفع الشخص نفسه فى شرب الماء تركته واكتفت وقنعت الطبيعة الإنسانية بما تستمد من الرطوبات التى فى الغذاء ولا تلتفت إليه ولا تشتهيه، وعلامة صحة الرياضة أن يحدث الله للعبد فى إحدى أسنانه أو لهاته عينا من ماء، تجرى من فيه إلى أن يروى، وهذا كله تابع لصدق المريد فى طلبه وعشقه وهمته فى بلوغ أربه، والله ولى الهداية والتوفيق.

الركن الثانى: السهر، وهو قسمان: سهر القلب، وهو يقظته من نوم الغفلة، والقرب من منازل المشاهدة، وسهر العين لتعمر الوقت ولدوام الترقى فى المنازل العلية، لأن بنوم العين يبطل عمل القلب، ففائدة السهر عمل الطلب وهو ينشأ من فراغ المعدة من فضولات الطعام والشراب وهو يورث معرفة النفس، وينبغى أن يكون ذلك بالتهجد، وهو لغة رفع النوم بالتكليف، وشرعًا صلاة نفل بليل بعد نوم، وقد ورد الحث فى الكتاب والسنة على قيام الليل فى الأسحار، والوقوف فى تلك الأوقات بين يدى الملك الجبار، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٢) الآية، وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا ﴾(٣) وقال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد» وقال ﷺ: «ركعتان فى جوف الليل يركعهما ابن آدم خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم» وقال ﷺ: «أفضلُ الصلاة نصف الليل وقليلٌ فاعله» وقال ﷺ: «أتانى جبريل فقال لى: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزىٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس» وقال ﷺ: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية». وقال ﷺ: «من بات فى خفة من الطعام والشراب يصلى تداركت حواليه الحور العين حتى يصبح» رواه الطبرانى، وقال

(١) سورة الإسراء آية ٧٩.
(٢) سورة المزمل آية ٢.
(٣) سورة السجدة آية ١٦.

ﷺ: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار» وقيل للحسن البصرى: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجهًا؟ قال: لأنهم خلوا بالله وناجوه والناس نيام فألبسهم نورًا من نوره، وروى أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام، وقد اجتهد السلف الصالح فى قيام الليل، فكان عثمان بن عفان وغيره يصوم النهار ويقوم الليل إلا ضجعة أوله، وكان يقرأ القرآن فى ركعة، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص كذلك، فجاء أبوه لزوجته فقال لها: كيف وجدت بعلك؟ فقالت: خير الرجال، لم يمس لنا كساء، ولم يعرف لنا فراشًا، وكان صفوان بن سليم عاهد الله أن لا يضع جنبه الأرض، فلما نزل به الموت قيل له: يرحمك الله أن لا تضع جنبك على الأرض ترتاح؟ فقال: لا أنقض عهد الله، فاستند إلى الحائط وما زال كذلك حتى خرجت روحه، وروى أن الله تعالى يباهى بقوّام الليل الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادى، قد قاموا فى جنح الظلام حتى لا يراهم غيرى، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد أبحتهم دار كرامتى، وقال بعضهم: إذا جن الليل بظلامه يقول الله لجبريل: يا جبريل حرك أشجار المعاملة، فإذا حركها قامت القلوب على باب المحبوب.

وأنشد بعضهم:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوعُ
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجوعُ

وقيل: أوحى الله إلى بعض الصديقين: إن لى عبادًا يحبونى وأحبهم، ويشتاقون إلىَّ وأشتاق إليهم، ويذكرونى وأذكرهم، فقال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلام بالنهار كما يراعى الراعى غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن

الطير إلى أوكارها، فإذا هجم الليل وأقبل الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه صفوا إلىّ أقدامهم وافترشوا إلىّ وجوههم، وناجونى بذكرى وكلامى، وتملقوا إلىّ بإنعامى، فمنهم صارخ وباكٍ ومتأوه وشاكر، ومنهم قائم وراكع وساجد، فأول ما أعطيهم ثلاث خصال:

الأولى: أن أقذف فى قلوبهم نورًا من نورى.

الثانية: لو كانت السموات والأرض فى موازينهم لاستقللتها لهم.

الثالثة: أقبل بوجهى الكريم عليهم، أفتدرى من أقبلت بوجهى الكريم عليه لو يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ما أمل.

وأنشد بعضهم فى ذلك المعنى فقال:

طوبى لمن سهرت بالليل عيناه | وبات فى قلق فى حب مولاه
وقام يرعى نجوم الليل منفردا | شوقا إليه وعين الله ترعاه

قال مالك بن دينار: كان لى ورد أقرؤه كل ليلة، فنمت عنه ولم أقرأه، فبينما أنا فى المنام وإذا بجارية أجمل ما يكون وجهها يتلألأ نورًا وفى يدها رقعة مكتوبة، فقالت: أتحسن أن تقرأ؟ قلت: نعم، فدفعت لى الورقة فإذا فيها، شعر:

أألهتك اللذائذ والأمانى | عن الحور الحسان فى الجنانِ
تعيش منعما لا موت فيها | وتلهو فى الجنان مع الحسانِ
تنبه من منامك إن خيرا | من النوم التهجد بالقرآن

وقال معروف الكرخى شيخنا: قمت ليلة فصليت ما شاء الله ثم نمت، فرأيت جارية وجهها كالبدر ليلة تمامه، فقالت لى: تنام ومثلى يُربّى لك فى الجنة، ثم تبسمت فى وجهى، فأضاء البيت من نور وجهها، فقلت لها: بم نلت هذا الجمال؟ فقالت: تذكر الليلة الفلانية التى قمت فيها وتوضأت وصليت وبكيت من خشية

الله تعالى، فى محرابك، فحُملت إلىَّ قطرة من دموعك فمسحت بها وجهى فصيَّر الله نور وجهى لك كما ترى.

وأنشد قائلاً للفطن اللبيب:

يا عاشقا للغوانى الحور ما تدر　　دار الغرور بعيش شيب بالكدر
إن الغوانى الحسان الحور مسكنها　　دار السرور على فرش على سرر
يشاهد المخ فى الساقين ناظرها　　من فوق سبعين ملبوسا من الحبر
قد همن شوقًا إلى أزواجهن كما　　يشتاق للغائب المحبوب فى السفر

وعن الشيخ أبى الحسن ﷺ قال: كان بجوارى شاب يصوم النهار ويقوم الليل، فجاءنى يوما وقال: يا أستاذ قد نمت الليلة عن وِرْدى فرأيت كأن محرابى انشق وخرج من المحراب حوارٍ كأنهن الأقمار، لم ير الرائى أحسن منهن منظرًا، فقال: قلت: لمن أنتن؟ فقلن نحن ثواب لياليك التى مضت للاجتهاد والعبادة ثم رأيت فيهن جارية لم ير الراءون أقبح منها وجهًا، فقلت لمن هذه؟ فقيل: هذه ثواب ليلتك التى نمت فيها، ولو مت فى ليلتك هذه لكانت تلك الجارية حظك.

ثم إن الجارية القبيحة أنشدت وجعلت تقول شعرًا:

اطلب من الله واردنى إلى حالى　　فأنت قبحتنى من بين أشكالى
لا ترقد الليل ما فى النوم فائدة　　فإن تنم فلا تعطى سوى أمثالى
نحن السرور لمن نال السرور بنا　　جوف الظلام لسكنى المنزل العالى
وقد حففت بلطف إن وعظت بنا　　فأبشر فأنت من المولى على بالى

فأجابتها جارية من الحسان تقول شعرًا:

أبشر بخير فقد نلت المنا أبدا　　فى جنة الخلد فى روضات جنات
نحن الليالى اللواتى كنت تسهرها　　جنح الظلام بلوعات وزفرات

أبشر فقد نلت ما ترجوه من ملك بر جواد بأفضال وفرحاتِ
غدا تراه تجلى لك غير محتجب تدنو إليه وتحظى بالتحياتِ

وعن مالك دينار ﷺ قال: نمت ليلة عن وردى فإذا أنا بثلاثة جوار كأنهن الأقمار، فقلت: لمن أنتن؟ فقلن لى: لمن لم يبرد الأباريق ولم يشغل بالشهوات النفسانية، ووقته مع الله بالتحقيق، فقلت إن كنتن صادقات فاكسرن الأباريق فاستيقظت فوجدت إبريقى مكسورًا سائلاً ماؤه.

وأنشد شعرًا:

يا كثير الرقاد والغفلات كثرة النوم توجب الحسرات
إن فى القبر لو نزلت إليه من رقاد يطول بعد الممات
ونعيم بجنتى كذاك عقاب بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت الهموم من ملك الموت فكم قد بدا لك من البينات

وقال سعيد ﷺ: أيما رجل قام فى الليل وصلى ركعتين إلا تبسم الجبار فى وجهه وقال: أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت له، وورد أن الله يباهى ملائكته بالعبد إذا قام فى الليل البارد يتهجد، يقول الله: يا ملائكتى انظروا إلى عبدى خرج من تحت لحافه وترك زوجته الحسناء يناجينى بذكرى وكلامى، أشهدكم أنى قد غفرت له، وكان بعضهم أحب التهجد إليه فى الشتاء على السطح، وذلك دأب السطوحية صيفا وشتاء، ورأى بعضهم حورية كأنها القمر ليلة تمامه فقال لها: لمن أنت؟ فقالت: لمن يقوم الليل فى الشتاء، يتضرع بين يدى الله، وكان السلف الصالح يعرفون وجه من نام بلا تهجد ويقولون له ــ توبيخًا: ما رأيناك هذه الليلة فى الحضرة الإلهية، قد حضر فلان وفلان وفُرقت عليهم التحف، وكانوا يعيبون على بعضهم بالنوم على الفراش اللين، وقيل لبشر الحافى: ألا تستريح هجعة؟

فقال: إن رسول الله ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفخت قدماه، مع أن الله أخبره أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف ينام الذى لا يعلم ماذا يصنع به ولا يدرى ما يفعل به؟

وكان الحسن البصرى يقول ما ترك شخص قيام الليل إلا بسبب ذنب أذنبه حتى حرم من العطايا والتشريف بالوقوف بين يديه، فتفقدوا أنفسكم كل ليلة عند الغروب بالاستغفار والتوبة لعل أن تقوموا بالليل بين يدى الله تعالى، وكان يقول: إنما ثقل قيام الليل عليك من كثرة الخطايا والذنوب، وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنى لا أقدر على قيام الليل فصف لى دواء لذلك، فقال: لا تعصه بالنهار وهو يوقظك للقيام بين يديه بالليل، فإن القيام بين يديه من أعظم الشرف، والعاصى لا يستحق ذلك الشرف.

وكانت رابعة العدوية تقوم بالليل وتتهجد عند السحر، فإذا انتبهت قالت: يا نفسى كم تنامين يوشك أن تنامى إلى يوم القيامة.

وأنشد فى المعنى فقال:

يا أيها الغافل أتى الرحيل ... وأنت فى لهو وزاد قليل
لو كنت تدرى ما تقاسى غدا ... لذبت من فرط البكاء والعويل
فأخلص النية وقم فى الدجا ... فما بقى فى العمر إلا القليل
ولا تنم إن كنت ذا غبطة ... فإن قدامك يوم طويل

وكان ثابت البنانى يقول: عليكم بقلة الأكل والشرب تملكوا قيام الليل، فإن مكابدة قيام الليل أهون عليكم من مكابدة أهوال يوم القيامة.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما يا معاشر المسلمين من خاف من ظلمات القبر فعليه بصيام يوم شديد الحر، ومن خاف من سوء الحساب فعليه بإطعام

الطعام، ومن خاف من هول منكر ونكير فعليه بقيام الليل، وقد جعل الله الهيبة فى قيام الليل، وكان الجنيد ﷺ يقول: لولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا، كذا قاله الصالحون، وقال إبراهيم بن أدهم: دخلت على بعض أخوانى أعوده فتنفس الصعداء وتأسف كثيرًا، فقلت له ما هذا التأسف؟ فقال: والله ثم والله، ما أتأسف على البقاء فى الدنيا، ولكن على فوتانى قيام الليل وصوم الهواجر وأصير فى التراب والمسلمون يتهجدون، وروى أن الملائكة ترى بيت المتهجد فى الأرض كما ترى الناس ضوء الكواكب فى السماء يقولون: هذا بيت فلان، وهذا بيت فلان المتهجد، وعن بعضهم أن المتهجد يشفع فى أهل بيته، وروى أن من صلى بالليل يدخل فى عرصات القيامة ووجهه يتلألأ نورا فى عرصاتها كالسراج فى ظلمة الليل، وكان بعضهم يفرش الفراش اللين ويضع يده عليه ويقول لنفسه: والله إنك لين، ولكن فراش الجنة ألين منك، وينصب قدميه إلى الصباح.

وأنشد شعرا فى المعنى فقال:

لله در السادة العبادى		فى كل بر مقفر ووادى
هجروا المراقد فى الظلام لربهم		واستبدلوا سهرا بغير رقادى
كتموا الضنا حفظا لهم وتحملوا		ففاحت عليهم حرقة الأكباد
ألوانهم تنبيك عن أحوالهم		ودموعهم منهلة كفؤادى
لا يفترون إذا الدجا وافاهم		من كثرة الأذكار والأورادى
نظروا إلى الدنيا تغر بأهلها		بوصالها وتغر بالإبعادى
فتزهوا عنها وجدوا فى اللقا		وتزودوا من صالح الأزوادى
ومشوا على سنن النبى محمد		خير الأنام الهاشمى الهادى

تنبيه: اختلفوا فى فضل أجزاء الليل، والذى دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وما ذهب إليه إمامنا الشافعى ﷺ إن قسمه أنصافًا، فالأخير أفضل، أو ثلاثًا فالأوسط، أو أسداسًا فالرابع والخامس، وهو الأكمل لأنه الذى واظب عليه النبى ﷺ، وقد قال ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وليس للمتهجد قدر فى عدد ركعاته لقوله ﷺ: «الصلاة خير موضوع، استكثر أو أقل» فأخذ بذلك الشافعى، وقيل: اثنتا عشرة ركعة، والذى صرح به شيخنا الشيخ مصطفى البكرى الحنفى فى المنهل العذب أن عدد ركعاته ستة عشر ركعة: ركعتان سنة الوضوء يقرأ فيهما بعد الفاتحة الكافرون والإخلاص، ثم ركعتان يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] الآية، وفى الثانية ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾[2] الآية، ثم يسلم ويستغفر الله بعد الركعتين مرارًا، ثم يصلى ركعتين من النافلة يقرأ فيهما بعد الفاتحة عشر الإسراء، وهو ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾[3] إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] ويعيد العشر فى الركعة الثانية، هذا إن قدر على ذلك، فإن لم يقدر أو ضاق الوقت صلى بقية التهجد، وذلك اثنتا عشرة ركعة، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة الإخلاص اثنتا عشرة مرة أو أكثر، وينقص من الثانية من العدد واحد إلى تمام الركعات، أو يقسم سورة يس على الاثنتى عشرة ركعة وإلا اقتصر على الإخلاص فى كل ركعة مرة.

---

(١) سورة النساء آية ٦٤.
(٢) سورة النساء آية ١١٠.
(٣) سورة الإسراء آية ٧٧.
(٤) سورة الإسراء آية ٨٥.

قال بعض العارفين: من قرأ يس فى قلب الليل بحضور قلب فقد جمع له بين ثلاثة قلوب: قلب القرآن، وقلب الليل، وقلبه، فإذا دعا الله بعد ذلك استجيب له، ويسن أن يوقظ من يطمع فى قيامه لأن فى ذلك إعانة على فعل الخير، فقد قال ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح فى وجهها الماء، أو رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء» وفى رواية: «ورش ورشت» بدل «نضح ونضحت» وفى رواية: «ما من رجل استيقظ من الليل فيوقظ امرأته، فإن غلب عليها النوم نضح فى وجهها الماء فيقومان فى بيتهما ويذكران الله تعالى ساعة من الليل إلا غفر لهما» وينبغى أن ينوى القيام عند النوم بنية جازمة ليحوز ما فى الصحيحين من قوله ﷺ: «إذا أتى أحدكم فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل، فغلبته عيناه حتى يصبح، كتب الله له ما نوى، وكان نومه عليه صدقة من ربه».

وأن ينام القيلولة لأنها بمنزلة السحور للصيام، قال ﷺ: «استعينوا بنوم القيلولة على قيام الليل وبطعام السحور على صيام النهار» وأن يمسح المستيقظ النوم عن وجهه وأن يستاك وأن ينظر إلى السماء، وأن يقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1] إلى آخر السورة، وأن ينام من نعس فى صلاته حتى يذهب نومه، وألا يعتاد غير ما يظن.

ويُكره ترك قيام الليل لمعتاده بلا ضرورة لقوله ﷺ لعبد الله بن عمر: عمر يا عبد الله لا تكن كفلان، كان يقوم الليل ثم تركه، فإن الله لا يمل حتى تملوا»

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤.

وينبغى للمريد أن يأخذ نفسه بالرفق واللين، ولا يحملها فوق طاقتها، ولا تعتاد غير ما يظن أن يقدر على إدامته، لقوله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله» ولقوله ﷺ: «لا تكابدوا هذا الدين فإنكم لا تطيقونه، وإن نعس أحدكم فلينم على فرشه فإنه أسلم» رواه الديلمى، ولقوله ﷺ: «خذوا من العبادة بقدر ما تطيقون، وإياكم أن يتعود أحدكم عبادة ثم يرجع عنها، فإنه ليس شىء أشد على الله من أن يتعود الرجل العبادة ثم يرجع عنها» وعنه ﷺ لأبى ذر: «يا أبا ذر إن لجسدك عليك حقًا ولأهلك عليك حقا، ولربك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه، صم وأفطر وقم ونم، وأت أهلك» وعنه ﷺ: «أيها الناس عليكم من العمل بقدر ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» ويكره تخصيص ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى بخلاف إحيائها بقراءة سورة الكهف، والصلاة على النبى ﷺ لوروده كما مر.

الركن الثالث: الصمت: وهو عدم الكلام فيما لا يعنى، روى عن أبى ذر الغفارى ﷺ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك عملا خفيفًا على البدن ثقيلا فى الميزان» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك».

وروى أن الصلاة عماد الدين، والصمت أفضل، والصوم جُنة من النار، والجهاد سنام الدين، والصمت أفضل.

وعن عيسى عليه السلام: العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها فى الصمت وجزء فى الفرار من الناس.

وقال بعضهم: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه هوى فى النار، وقال السيد البكرى في الوصية الجليلة للسالكين طريقة الخلوتية: وعلى المبتدى له أن يصمت بلسانه عن لغو الحديث، وبقلبه عن جميع الخواطر فى شيء من الأشياء، فإن من صمت لسانه وقلبه انكشفت له الأسرار وجليت عليه المعارف الأبكار، فإذا صمت المريد بقلبه ولسانه انتقل إلى المحادثة السرية، لأن صمت الإنسان فى نفسه لا يمكن أصلاً، وهذا الصمت يورث معرفة الله تعالى، ولقد تكلموا فى الصمت المتقدمون.

ولقد قلت فيه كما قالوا:

انظر أخى كم فى الصمت من حكم
واعمل به كى تنل قربا وإحسانا
واصمت بقلبك عن كل الوجود وقم
فى وصفه يا فتى سرا وإعلانا
فذاك نور به تهدى القلوب إلى
حضائر القدس تحقيقًا وإيقانا

الركن الرابع: العزلة: وهى الانفراد والانقطاع عن الخلق إيثارًا لصحبة المولى سبحانه، وهى صفات أهل الصفة وأرباب الوصلة، ولا بد للمريد منها فى ابتداء أمره عن أبناء جنسه وإلا فلا يفلح:

لقاء الناس ليس يفيد شيئًا   سوى الهزيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا   لأخذ علم أو إصلاح حال

وعن أبي أمامة الباهلي قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «احفظ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» وقال ذو النون المصري: لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من العزلة.

والعزلة نوعان: باطنة وظاهرة، **فالباطنة** عزلة القلب مع الحق بحضوره معه، وعدم ملاحظة الخلق بالكلية، فيرى الناس أمثال أفياء كما أشار إلى ذلك أبو يزيد، قال لي: منذ ثلاثين سنة أخاطب الحق والناس يظنون أني أخاطبهم، وذلك صفة المحققين من الرجال الواصلين، والظاهرة والعزلة بالخلوة عن الخلق في مكان بعيد بحيث لا تدرك منهم من يؤذيك، ولا يدركون منك ما يؤذيهم، مع التضرع إلى الله والانقطاع إليه، قالت عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤية الصالحة الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث ـــ أي يتعبد ـــ فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو بغار حراء.

ثم اعلم أيها الطالب سلوك طريق الأبدال، التي هي: الصمت والسهر والجوع والاعتزال القاصد مقاصد الكمال، العازم على التجرد والدخول في سنن الأبطال، من أراد العزلة بالخلوة لا بد له من تقديم التباعد عن الناس قبل دخولها حتى تألف النفس الوحدة والانفراد، وتستعد بتقواها، وليقلل من الطعام والمنام، ولينو العزلة في عزلته عن الخلق طلب القرب من أحبته، ويحقق التوبة والإنابة إلى الله بالتضرع والخشوع، ويفرغ باطنه من الغش والحسد والمكر والخديعة والرياء، ويربط منح أستاذه ربطًا محكمًا حتى يصير فيعه متعسا لغيره من الخلق، ولو شاهد منهم العجائب من خرق العوائد، وهذا الاعتقاد أول فتح يفتح الله به على المريد أنه قد استعد للخلوة فيدخلها، ومتى وجد في باطنه تعلقًا بالأغيار والتفاتا للآثار ليخرج

من الخلوة للعزلة فإنه قد يكون دخلها قبل تكميل شروط العزلة، فإن لم يحكم المريد العزلة لا يدخل الخلوة ولا يحظى بالجلوة، فالجلوة أثر عن العزلة، والعزلة أثر عن الهمة، والهمة أثر عن التوفيق الذى هو خلق قدرة الطاعة فى العبد.

ثم يدخل الخلوة بالتوفيق بعد تنظيفها بالكنس والغسل وتطييبها بالبخور كالجاوى والعنبر الخام بالشروط المعتبرة عندهم، فقد اشترطوا لها أربعة وعشرين شرطًا، أذكرها تتميمًا للفائدة:

الأول: أن يعود نفسه السهر والذكر وخفة الأكل والعزلة، كما تقدم حتى يتمرن على ذلك.

والثانى: أن يستأذن الشيخ فى دخولها، ولا يدخلها بلا إذن البتة ما دام فى حجر التربية.

الثالث: أن لا يدخلها على نية حبس نفسه عن الناس ليريحهم من شره وضره، ويرتاح من شرهم وضرهم.

ولقد أجاد بعضهم حيث قال:

راحتى يا إخوانى فى خلوتى ... وبلاى كله من رفقتى
كلما عاشرت قومًا منهم ... نقضوا العهود وخانوا صحبتى
ما اعتزالى عنهم من ملل ... بل وجدت راحتى فى عزلتى

الرابع: أن يدخلها كما يدخل المسجد معوذا مبسملا مخلصًا لله تعالى.

الخامس: أن يدخلها الشيخ قبله ويركع فيها ركعتين بجمعية منه، وإن ذلك يقرب الفتح على المريد.

السادس: أن يعتقد أن الله ليس كمثله شىء، ولا تدركه الأبصار، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يترك الأعمال الصالحة فى عموم إقامته، ثم إن لاح له شىء فى

خلوته وقال: أنا الله وأنت وليى وحبى، وقد أحبتك ارحم نفسك من العناء والمشقة والتعب فلست أغضب عليك بعد هذا اليوم.

فليعلم أن هذا الخطاب لا يخلو إما أن يكون من جهة من الجهات الستة، أو من غير جهة، فإن كان من جهة فهو من الشيطان قطعًا، فليتعوذ بالله ويتحصن بالذكر والإخلاص، وقراء القرآن ـــ إن كان قارئًا ـــ وإن كان هذا من غير جهة فهو من الحق سبحانه وتعالى، لكن لا يخلو إما أن يكون من باب المكر والطرد من الله ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(١) وإما أن يكون من باب الرضى الدائم، كما وقع لأهل بدر من قوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) فعلم بالضرورة أنهم بعد ذلك لم يدعوا فرضًا ولا نفلاً و لم يخرجوا عن حكم شرعى، وعلامة الثانى أن يصحبه الحظ والأنس بالله، والأول يصحبه الميل إلى الزمان والشهوات النفسانية فيستعيذ بالله من الله، كما جاء فى الحديث: «أعوذ بك منك» ويتحفظ من الأول بدليل الاعتقاد العلمى: الإيمان بالله ليس كمثله شيء، ولا تدركه الأبصار، ونحو ذلك، فإنه ينصرف عنه خائبًا وينجو من إغوائه وإضلاله، ولا بد من تلبسه بعمل قولى كان أو فعلى يشغل به نفسه لما قيل إن النفس دائمة الاشتغال، إن لم تشغلها بحق أشغلتك بالباطل.

السابع: أن لا يعلق نفسه بكرامة ولو عرض عليه أنواع الكرامات، لكن يقبل ما يرد عليه من الله بحسب الأدب، ولا يقف معه، فإنه مهما وقف مع شيء فيحسن الظن بالله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة آية ١٥.
(٢) سورة الفتح آية ١٨.
(٣) سورة طه آية ١١٤.

الثامن: أن لا يسند ظهره إلى جدار ولا يتكئ على فراش ويكون مطرقًا رأسه مغمضًا عينه.

التاسع: أن يشغل قلبه مراعيا خواطره، بالنفى عن قلبه مراقبا لربه، مستحضرا جلوسه بين يديه، لقوله تعالى: «أنا جليس من ذكرنى».

العاشر: أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها شعاع الشمس وينبغى أن يكون ارتفاعها قدر قامتك وطولها قدر سجودك، وعرضها قدر جلستك، ولا يكون فيها ثقب ولا كوة، بابها يكون لجهة القبلة، بعيد من أصوات الناس، وبابها غير عالٍ قصير وثيق فى غلقه، وليكن فى دار معمورة بالناس، وإن أمكن أن يبيت أحد عندك بحيث يكون قريبًا من باب الخلوة كان أحسن، بشرط أن لا يكثر من الحركة والهرج لئلا يشغل قلبك بها ولا تكثر الحركة أنت أيضًا فيها.

الحادى عشر: الصوم مع تقليل الأكل عند الفطر، وعليه تقليل الماء حسب الجهد والطاقة فإن ذلك مما يوجب تقليل الأجزاء الهوائية والنارية فيصفو القلب بذلك.

الثانى عشر: دوام الوضوء، فإنه نور ظاهر مع استدامة استقبال القبلة فيها.

الثالث عشر: السكوت إلا عن ذكر الله أو ما دعت إليه ضرورة شرعية، وما عدا ذلك محبط للعمل مذهب لنور القلب.

الرابع عشر: إذا خرج من خلوته لوضوئه يخرج مطرق رأسه غير ناظر لشىء، إلا لحاجة، فإنهم يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الطعام، مغطيا رأسه بشىء مستدر يأمن الهواء لئلا يصيبه وأعضاؤه مخلخلة من الذكر.

الخامس عشر: المحافظة على الجمعية والجماعة، فإن المراد الأعظم من الخلوة عند القوم متابعة النبى، وفى ترك ذلك خلل عظيم، والمتابعة حيث كان فى المسجد

الذى تقام فيه، أو يقتدى بشخص وهو داخل الخلوة وهو يراه ويفتح الباب، اللهم إلا أن يغلب عليه الحال ويستولى، فإن استولى الحال فالحكم له، وهو عذر ظاهر، قال السهروردى: رأينا من تشوش عقله فى خلوته، ولعل ذلك من ترك الجماعة، ولا يجلس مع الناس بعد الصلاة ويصلى السنن فى الخلوة، ولا يقتصر على الفرائض والرواتب والركعتين عند كل طهارة من الحدث ويأتى بأوراد الطريق.

السادس عشر: المحافظة على الأمر الأوسط بين الجوع والشبع، ومما ينبغى له إذا كان وقت الفطر و لم يجد نفسه تايقة للأكل والشرب أن يفطر على زبيبة أو لوزة لأن تعجيل الفطر سنة، أو جرعة ماء، وليقم إلى الصلاة فإذا أتمها بآدابها فليحضر بعد ذلك ما استعده لغذائه فيها، وإذا كان عنده من يخدمه شربة أرز ولا يجعل فيها ملحا، إلا إذا كان بحيث لم يظهر ملوحته، وليكن الذى يأكله من الشعير وإلا من البر من غير ملح فيه أيضًا، هذا إن لم يحصل به مشقة بتأخير العشاء وإلا قدمه، وشرط بعض الشيوخ أن يكون طعام المختلى وسما لم ينفصل عن حيوان.

السابع عشر: أن لا ينام إلا عن غلبة نوم، وحد الغلبة أن يتشوش عليه الذكر، ولا ينام لراحة البدن إن قدر أن لا يضع جنبه الأرض وينام جالسًا فعل، فإن النوم ينمي الرطوبة ونمو الرطوبة يشغل الأجزاء الترابية فيتكدر صفو القلب ونشاط الروح عن الترقى فى الملكوت فلا يحصل له نتيجة الخلوة.

الثامن عشر: نفى الخواطر كلها، خيرًا كان أو شرًّا لأن الخواطر تفرق القلب عن الجمعية الحاصلة بالذكر، إلا أن يبلغ درجة التمييز، فإنه عند ذلك ينفى ما يجب نفيه ويبقى ما يجب بقاؤه، وإنما المريد فى الابتداء ينفى الخواطر كلها لأنه دخيل فى الطريق لا يميز له بين الخواطر والخواطر ما ترد على الضمائر.

والوارد عليها فى اليوم والليلة اثنان وسبعون ألف خاطر، منحصرة فى خمسة خواطر أمهات، لأنها تارة بإلقاء الحق، وتارة بإلقاء الملك، وتارة بإلقاء القلب، وأخرى بإلقاء الشيطان، ويكون بإلقاء النفس، فإن كان من قبل الله يسمى خطابا، وإن كان من قبل الملك يسمى إلهاما، وإن كان من قبل القلب يسمى هاتفا، وإن كان من قبل الشيطان يسمى وسواسًا، وإن كان من قبل النفس يسمى هاجسا، فكل ما فيه قربة فهو من الأول والثانى، وكل ما فيه مخالفة أو موافقة معلومة فهى من الثالث والرابع، ولكل واحدة من الأربعة علامة تميزه عن الأخرى، فينبغى إذا خطر له الخاطر أن ينظر إلى ما يعقبه، فإن أعقبه برد ولذة وسرور ولم يجد له ألمًا ولا ضررًا ولم يغير له صورة فهو الملكى، وينزل علما وفهما، وإن أعقبه تشويش فى الأعضاء ووجع وألم وضيق كان من الشيطان، وينزل تخبيطا، وأما إذا أعقبه ألم فى القلب وفى الصدر ضيق وفى النفس تكرار كان من النفس، لأن النفس إذا طلبت شيئًا من شهواتها ألحت فى طلبه، فقد شبهوها بالطفل الصغير إذا أخذت منه شيئًا، فإنه لا يزال يبكى حتى ترد ما أخذته منه إليه، بخلاف الشيطان فإنه مقصوده الإغواء بأى وجه كان.

وأما إذا كان له على القلب صولة ولا للنفس صولة ولا للشيطان معه مجال ولا للملك عليه أعراض ولا يرد بأمر ولا نهى، ولا يندفع بالدفع فهو الأول، فإن له على القلب حكما كالسبع الضارى على الفريسة الضعيفة لكن هذا الفرق يحتاج إلى صفاء قلب وسريرة، وقال بعضهم: إذا كان الخاطر من قبل الله تعالى كان تنبيهًا للعبد وإيقاظا له، وإن كان من قبل الملك يكون تحريضًا على العبادة، وإن كان من قبل القلب وافق الملك، وإن كان من قبل الشيطان يكون تزيينا لمعصية، وربما يدعوه الشيطان إلى عبادة ويحضر عليها وعلى ذكر آخر، أو على

شهوة فيشتبه بالنفس والملك، وإنما يفرق بينهما فإن الخاطر الملكى يتولد منه السكون، والشيطان يعقبه الوحشة والثقلة، والنفس تلح فى الطلب وتبالغ ولا تقبل العدل، كما تقدم، فلا ينفى هذا الخاطر إلا بنفى تام وجد بليغ، وأجمع الأشياخ أن النفس لا تصدق فى إلقائها وإن القلب لا يكذب.

تنبيه: من قصر فهمه عن إدراك حقيقة الخواطر والتبس عليه الأمر فليزن الخاطر بميزان الشرع، فإن كان فرضًا أو نفلاً يمضيه، وإن كان محرمًا أو مكروهًا ينفيه، فإن استوى الخاطران فى نظر العلم ينفى أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فإن النفس يكون لها هوًى كامن فى إحداهما والغالب فى شأنها الاعوجاج والركون إلى الدون، وقد يعبر عن الخاطر بالوارد، وكلاهما بمعنًى واحد، وقيل: يفرق بينهما بأن الوارد لحظة أو ساعة، وإن زاد فى مثله يومًا فهو الخاطر، ومن علامات الخاطر أن يمكث ثلاثة أيام، ومن علامات الوارد الإلهى والخاطر أن العبد ما دام مستغرقًا مع الله غائبًا عما سواه فأفعاله كلها تصدر عن الله، لا عن نفسه، دعها من أى قسم كان من الباطن والظاهر، ومن عالم الغيب أو من عالم الشهادة، أو من إدراكات العقل أو من غيره، أو من علاماته أيضًا إذا رجع عن أفعاله، لا يميز ما فعل من فعل ما، من أكل أو شرب أو غير ذلك من أى الأفعال، فكان فى ذلك الوقت فعالاً بالله، لأنه ليس من خلق جديد.

وأشار صاحب الإنسان الكامل بقوله: يأكلون ويشربون ويحلفون بالله إنهم لا يأكلون ولا يشربون، وهم عند الله بريئون صادقون، فتصديق الحق يقال لهم فى ذلك على أن أفعالهم ليست صادرة عنهم، وإنما هى كلها حميدة، وانتساب المحامد لله وعلامة الأفعال الحميدة السنية أن تكون دالة على الله فى كل فعل من الأفعال

وحال من الأحوال، وإنها ليست متعلقة بالأكوان، بل طائرة عن الأكوان فى طلب صاحب الأكوان.

والوارد الملكي يرد من عالم الملكوت، وفى اصطلاح السادة الصوفية، رضى الله عنهم، أن عالم الملك هو البشرية، وعالم الملكوت هو الروحانية، لأن الروحانية متعلقة بالملك والبشرية متعلقة بالنفس، لقول بعضهم: ما دامت بشرًا أنت بشر أى: ما دمت مع نفسك الحيوانية فأنت فى أفعالك الدنية غرقان فى بحر الدار البشرية، هى النفس الحيوانية، ومن علاماتها أنها لا تأمر بخير قط، كما مر، ومن علامات الدخول فى مقامات الروحانية أن يتخلص من أوصاف نفسه الحيوانية ومن أفعاله الدنية حتى لا يبقى عليه منها من بقية وتكون أفعالها كلها طيبة سنية لأنها صارت على النفس المرضية ومعرفة هذه الخواطر من أهمّ الأمور على المريد فى الخلوة يستعين على عدويْه: النفس والشيطان، سيما فى هذا الحال الذى زلت فيه الأقدام ـــ إلا من عصمه الله وقليل ما هم.

قال شيخنا البكرى فى هدية الأحباب: مما ينفع فى طرد الخواطر عن القلب إذا هجمت عليه وأشغلته عن ربه:

الطهارة أولا، بأن يجدد الوضوء، فإن لم يذهب فليرفع الصوت بالذكر إلى أن تقل ثم يعود إلى خفضه بعد ذلك، فإن لم تقل برفع الصوت فليتوجه بهمة شيخه فى دفعها، فإذا ذهبت ثم عادت فليضع يده على قلبه وليقل سبحان الملك القدوس الخالق الفعال ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1] سبع مرات، وقيل: إنها تنفع فى زوال الوسوسة، فتذكر عقب كل فرض سبعًا أو ثلاث.

(١) سورة إبراهيم آية ١٩، ٢٠.

وذكر البونى فى شمس المعارف الصغرى: مما ينفع لاستيلاء الخواطر على القلب أن يتوضأ ويذكر يا قدير، فإنه يذهب جوعه عنه، ثم قال: وإذا وجد استرخاء فى بدنه واستشعر الضعف فليغتسل وليذكر يا قوى يا قدير، إلى أن ينقطع نفسه سبعة أنفاس، فإن الله يحدث فى أعضائه قوة باطنة، وظاهرة، ثم قال: ومن أدركه قلق وتشويش خاطره من اختلاف الأفكار فليتوضأ ويذكر يا أمين يا هادى سبعة أنفاس كاملة، كما تقدم، فإن الله يذهب جوعه عنه ويسكن خاطره ويصفى وقته، وذكر غيره مما ينفع للجوع اسمه تعالى الصمد، فإنه إن ذكره الجائع ظهر أثره فى الحال، واسمه تعالى الجليل، يتلوه الظمآن يسكن ظموه، وقيل: إن سورة تبارك إذا تلاها الإنسان ويده على قلبه سكن عطشه.

التاسع عشر: دوام ربط قلبه بالشيخ، المسلك الكامل الناجح سلوكه على الكتاب والسنة، شرعى حقيقى، وعلى المريد استفادة علم الوقائع منه على وجه التسليم، فإن الأستاذ باب المريد الذى يدخل منه على رسول الله ﷺ، فإنه خليفته، ولذلك يجب رعايته بالظاهر والباطن على الوجه الأكمل.

العشرون: أن لا يفتح باب الخلوة لطارق يطرق عليه إلا لشيخه، ويرد الجواب بآية من القرآن إن أمكنه، وأن لا يكلمه إلا بكلمة ولا يزيد عليها ويقصد بالكلمة الذكر، ولا يتكلم إلا مع شيخه مدة الخلوة فإن ذلك مما يفسد عليه خلوته، فإذا قام الشيخ عليه خارما فلا يزيد فى الكلام على الحاجة من أربع كلم إلى ثلاثة، أو من ثلاثة إلى اثنين، ثم إلى واحد، فإن الكلام مفسد وتفريق للجمعية.

الحادى والعشرون: إذا رأى شيئًا فى الواقعة فلا يستحسنه ولا يطلب من الشيخ تأويله، ربما لا يرى الشيخ مصلحة فى التأويل ولا يكتم من الشيخ واقعة لقبحها أو لحسنها، فإنه يكون خائنًا والله لا يحب الخائنين، فإن قال له هذا نفسى

أو شيطان أو غير ذلك وجب عليه اعتماده ما لم يحصل إلى الذوق، فإن وصل وذاق الخواطر وعرفه وميزه عن غيره حسب الفرق بين الشهد والحنظل فلا بأس باعتماده على معرفته، وأما معرفته لذلك بالعبارات فيصعب نوع صعوبة، فلذا شبه شبهه مبدأ هذا الأمر إلى منتهاه، فإن مبدأه مرض ومنتهاه صحة، فإن القلب ذو أمراض فى الابتداء، فإن داواه الشيخ الحاذق اللبيب الناجح الفالح المسلك صح وسار سليمًا سالكا، فإذا صح القلب وسلم ذوقه سلمت الأتباع من الشبه.

الثانى والعشرون: دوام الذكر، وهو: «لا إله إلا الله» كما اختاره الجنيد وجماعة و «الله» على ما اختاره بعض المتأخرين، وقال الشيخ دمرداش: إن الذكر فى الخلوة يكون بما يعطيه الشيخ للمريد حسب ما يراه، وقال بعضهم: المبتدأ: «لا إله إلا الله» والمنتهي «الله» وقال بعضهم: التحقيق أن ذلك راجع إلى الذكر، فإن وجد التأثير فى قلبه بـــ «لا إله إلا الله» لزمه وأكثر منه، وإن وجد التأثير بـــ «الله» لزمه وأكثر منه، وأجمع الأشياخ المرشدون أن المريد لم يسلك طريقًا أقرب ولا أوضح من الذكر، ولا يشتغل بسواه، ما عدا السنن والفرائض، وقال فى هدية الأحباب: يشتغل بجميع أوراد الطريق ولا يخلو بآداب من آدابها، كما تقدم، وينبغي أن يشهد الذاكر أن المحرك له فى الذكر والمنطق به هو الله وحده، ولا قدرة له أصلاً، فيكون الحق تعالى بهذه الملاحظة هو الذاكر.

الثالث والعشرون: الإخلاص، وحسم مادة الرياء والشرك الخفى، لأن ذلك محبط للعمل، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.

الرابع والعشرون: أن لا يعين مدة الخلوة، فلا يحدِّث نفسه بالخروج منها بعد الأربعين، فإن حدَّث نفسه فقد خرج فى اليوم الأول، ولكن يحدثها بأنها قبره إلى يوم القيامة، وهذا دقيق لا يتنبه له إلا البالغون، ولا يأنس إلى الخلوة حتى يجانب كل من يعاشره ويصاحبه ويأنس بكلامه أو برؤياه فيستوحش من ضدها، ثم يستأنس بذكر الله عز وجل، ثم لا يزال مستأنسًا بالخلوة والذكر حتى تنقطع عنه الأضداد، ثم يأخذ من هنا فى بداية الخلوة المعنوية، فيكون بصورته مع الأغيار، ومعناه مع الله عز وجل، ويؤيد ذلك قول الجنيد لمريده: إذا كان أنسكم بالله فى الخلوة استوى عندكم الصحارى والخلوات، وإن كان أنسكم فى الخلوة ذهب أنسكم إذا خرجتم منها.

فهذه الشروط مما يجب على المريد حفظها ومعرفتها ليعرف ما يطلب منه وما يجب التحرز منه، ثم ملاك هذا كله الهمة والتوفيق.

وأما أصول الطريق فقد عدها صاحب «القول المتين فى فضل الذكر والتلقين» عشرة، وأوصلها إلى ثلاثة عشر:

الأول: التوبة، بالمعنى المتقدم.

الثانى: المجاهدة للنفس، وهى إتعاب النفس فى الأمر الجائز، وقال بعضهم: ترك المألوف والعادات وتحمل المشقات.

واعلم أيها المريد الموفق السعيد أن القوم أجمعوا على أن المجاهدة لا بد منها فى سلوك طريق الأخيار الذين هم سيئاتهم حسنات الأبرار، مستدلين لذلك بالكتاب والسنة:

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(١)] ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾[(٢)] ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[(٣)] ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٤)].

وأما السنة فقوله ﷺ: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له» وقوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «الجهاد فى النفس» والمجاهدة فى حصول التعب والمشقة فى حال السلوك، فمن وجد مشقة وتعبًا قيل له: مجاهد، ومن لم يجد ذلك لا يقال له مكابد، فإن المجاهدة مكابدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٥)] ثم أمرهم بالجهاد فى النفوس، فالنفوس عارية عندهم، فمن تحقق فى هذا المعنى لم يجد مشقة للمجاهدة إلا من حيث ظاهره، وأما من حيث باطنه فهو مستريح من التعب والنصب، قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى: أجمع الأشياخ أنه لا بد للمريد من المجاهدة فى ابتداء أمره، وأجمعوا أن من رام الطريق بغير مجاهدة فقد رام المحال.

قال بعض الأشياخ: كل من ليست له بداية محرقة ليست له نهاية مشرقة، فالبداية يطالب فيها المريد بالتصفية والتخلية ليحظى بالتحلية، فالتصفية يصفى سريرته من التعويق بالأغيار والوقوف مع الأوهام والأفكار، والتخلية هى التخلى عن السوى وترك كل ما بالسالك من هوًى، ولها سببان: الذكر، والفكر، فالذكر

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩.
(٢) سورة العنكبوت آية ٦.
(٣) سورة الحج آية ٧٨.
(٤) سورة النساء آية ٩٥.
(٥) سورة التوبة آية ١١١.

يشرق الأنوار ويفرق الأكدار، بالفكر يعرف العبد ما يناسب حاله، فيلوى عليه آماله، وما لا ينفعه تركه ووضعه، والتصفية والتخلية يكونان فى العقل والفكر والقلب والروح والسر والحواس الظاهرة، إذ هما كناية عن التطهير والتقديس، فطهارة العقل عدم وقوفه عن كون من الأكوان، وطهارة الفكر أن لا يمر فيه ما يشغلك عن الرحمن.

واعلم أنك إذا قلت فى الوقت مع المأمور مقهور فقد أعطيت بمجاهدتك كمال الأجور، وطهارة القلب فراغه عن حلول شيء فيه، إذ هو بيت الرب فيجب عليك أن تفرغه وتصفيه، وطهارة الروح عدم الوقوف مع الفيض والفتوح، والتحقق بحقائق العبودية، والخروج عن الوجود بالكلية، وطهارة السر عدم شهوده سواه، والغيبة به فيه عن كل ما يراه.

وطهارة الحواس الظاهرة بمياه الفيوضات الباهرة، وطهارة السمع عدم السماع إلا منه، وطهارة العين عدم شهود غير العين فى كل أين وبين حسن وشين، وطهارة الشم فى استنشاق نسيم الحى، وقال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» طريق معرفة النفس على نهج الخواص الكمل لا يكون إلا بالمجاهدة والتصفية، وهما من أنواع المجاهدة، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له، قال أبو على الدقاق: من زيّن ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بالمشاهدة، ومن لم يجاهد نفسه فى بدايته لم يشم للطريق رائحة، وقال بعضهم: بُنيت الطريق على ثلاثة أشياء: لا يأكل مريدها إلا عند الفاقة، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلم إلا عند الضرورة.

وأنشد بعضهم فقال:

بقدر الكد تكسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالى

تروم الوصل ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلى
ومن رام العلا بغير كد أضاع العمر فى طلب المحال

واعلم أن مجاهدة النفس وعلاجها أشد وأصعب من مجاهدة الشيطان، لأن النفس لا يمكنك التجرد عنها بحال من الأحوال قطعًا، وهى مصيدة الشيطان وآلته، وهو عدو خارج، وهى عدو حاضر معك فى داخل جوفك، واللص إذا كان من أهل البيت ضاعت فيه الحيل وكثر فيه الضرر، بخلاف ما إذا كان خارجًا فإنك تدبر عليه وتمنعه، وأيضًا الشيطان عدو مبغوض، والنفس عدو محبوب، والمحب يعمى عن عيوب محبوبه، فإذا استحسن المرء من نفسه قبيحًا لا يطلع عليه ولا ينظر إليه حتى يقع فى المهالك والبلاء وهو لا يشعر، ومن شأنها تحسن القبيح وتقبح الحسن لصغرها وعدم بلوغها، وقال بعضهم: من لم يجاهد نفسه فى جميع الحالات و لم يخالفها فى جميع الشهوات و لم يجردها من جميع المكروهات، وإلا فهو مغرور فى سائر الأوقات، قال ﷺ: «هل أدلكم على صاحب إن أنتم أجعتموه أو أهنتموه أكرمكم، وإن أكرمتموه أفضى بكم إلى شر غاية» قالوا: يا رسول الله، والله إن هذا لشر صاحب، قال: «والذى نفسى بيده إنها لنفوسكم اللاتى بين جنوبكم» وقيل: أوحى الله إلى بعض الأنبياء: عادِ نفسك فليس لى منازع فى المملكة غيرها، أى لأنها تطلب ما هو للرب تعالى، وهو الكبرياء والعظمة والجاه والشهوة وامتثال الناس لها، قال بعضهم: سجنك نفسك فإن خلصت منها وقعت فى راحة الأبد وإن وقعت فى حبالها وقعت فى تعب الأبد.

وفى الحقيقة أن أمر النفس ومجاهدتها وعلاجها صعب وعسر، لا يكن بمرة واحدة بل بالتكرار مرة بعد أخرى، وقد شبهها بعضهم بالدابة الحرون فلا تنقاد إلا باللجام، وإنما تنقاد وتذل بثلاثة أشياء:

الأول: منعها من شهواتها، فإن الدابة الحرون إنما تلين إذا نقص علفها.

والثانى: حمل أثقال الطاعات، لأن الدابة الحرون إذا قل علفها وزيد فى حملها ذلت وضعفت وصغرت وانقادت ورجعت وأطاعت.

والثالث: يستعين عليها بالله، لا بحزمه ولا بعزمه، إلا بتوفيق من الله، ألا ترى إلى قول الصديق الأكبر ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1] ولا بد للمريد أن يكلف نفسه الأعمال الشاقة التى يعسر عليها ارتكابه من صوم وصلاة وذكر ومجانبة مألوف، ثم ينقلها إلى ما هو أشق من ذلك حتى تصبر ولا تنفر من طاعة ولا تثقلها وتألفها، بل تتأذى بتركها الطاعات فمهما عودتها تعودت، وإن منعتها صبرت، وإن تركتها فى شهواتها غوت وهلكت.

قال صاحب البردة:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وأنشد بعضهم فقال أبياتًا:

صبرت عن اللذات حتى تولت   وألزمت نفسى هجرها فاستمرت
وكانت مدى الأيام نفسى عزيزة   فلما رأت عزمى على الذل ذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى   فإن أطعمت فاتت وإلا تسلت

وسيأتى الكلام على أوصافها وما يتعلق بها فى الباب العاشر، إن شاء الله تعالى.

والثالث: الحزن لله، وهو قبض القلب عن التفرقة فى أودية الغفلة وصاحبها يقطع فى طريق الله ما لا يقطعه من فقد حزنه فى سنين، وفى الخبر أن الله يحب كل قلب حزين.

---

(١) سورة يوسف آية ٥٣.

الرابع: الدعاء مخ العبادة، ومفتاح الحاجة، ومفتاح العبادة، وإن الله يحب الملحين في الدعاء، وأن الدعاء يرد البلاء النازل من السماء، وفى الخبر أن العبد ليدعو الله وهو عليه غضبان، فيعرض عنه، ثم يدعو فيعرض عنه، فيقول الله لملائكته: أبى عبدى أن يدعو غيرى، أشهدكم أنى قد استجبت له.

الخامس: الخوف، وهو فزع القلب من سطوة الرب، وهو من شروط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وقال سليمان الدارانى ما فارق القلب خوفًا إلا خرب، وهو ثلاث مراتب: **الأولى**: خوف الوعيد وتهديد العذاب وسطوة الاقتدار وعدم قبول العمل، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولا تلذذتم بالنساء على الفراش» فصاحبه لا ينقل قدمه لهوى نفسه، ولا لما ليس فيه رضى مولاه، وسئل بعضهم: ما لى لا أرى الخائفين؟ فقالوا: لو كنت خائفًا لرأيت الخائفين، **ثانيها**: خوف المكر وسوء الخاتمة وسلب الأحوال، **ثالثها**: خوف السابقة من حيث كونه ما يفعل به لم يعلمه، قال ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعًا أو باعًا، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...» الحديث.

قال بعضهم:

الزم الخوف مع الحزن ... بتقوى الله تربح
واترك الدنيا جميعًا ... إن خوف الله أرجح
واجتهد فى ظلم الليل ... إذا ما الليل أجنح
واقرع الباب بذلٍّ ... فلعل الله يفتح

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٥.

السادس: الرجاء، وهو توقع أمر محبوب على سبيل الاقتراب، وهو ثلاث مراتب: **الأولى**: رجاء الشفاعة مع حالة الإسراف وقلة العمل، فيرجو دخوله فى شفاعة الشافعين من رسول الله ﷺ وغيره من عباد الله الصالحين، من كون الحق سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1] فهو لا يرضى ﷺ أن يكون أحد من أمته فى النار؛ قال الإمام على، كرم الله وجهه: إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن، فعامة المؤمنين يرجون الشفاعة، لكن مع صحة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وإقامة حدود الله بالتقوى، فإن ذلك موجب استحقاق الشفاعة.

ثم قال:

يا رب أنت إلهى ... وفيك أحسنت ظنى

يا رب فاغفر ذنوبى ... وعافنى واعف عنى

العفو منك إلهى ... والذنب قد جاء منى

والظن فيك جميل ... حقق بحقك ظنى

رابعها: رجاء الرحمة، وينشأ ذلك من سعة الرحمة والمنة لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2] وقال ﷺ معناه: أن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السموات والأرض، جعل منها رحمة فى الأرض، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحوش والطير، بعضها على بعض، وأخَّر تسعة وتسعين، فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة» وقال ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» قيل له: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن

---

(١) سورة الضحى آية ٥.

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦.

يتغمدنى الله برحمته» وفى الخبر: «يؤتى يوم القيامة برجل من أمتى وعليه من الذنوب ما لا يحصى فيقف بين يدى الله تعالى، فيُحاسب ثم يؤمر به إلى النار، فيلتفت، فيقول الله تعالى: يا عبدى ما كان التفاتك؟ فيقول العبد: يا رب تسألنى عن أمر أنت أعلم به منى؟ وما كان ظنى بك هذا، فيقول الله تعالى: وما كان ظنك بى؟ فيقول: يا رب عصيتك ولم أقطع رجائى منك، فيقول الله تعالى لملائكته: وعزتى وجلالى ما كان ظن عبدى بهذا الظن ولا كان رجاؤه هذا الرجاء، ولكن هذه دعواه ادعاها هذه الساعة، أشهدكم أنى قبلت دعواه وغفرت له وحققت ظنه، اذهبوا به إلى الجنة.

ويقال فى المعنى:

يا رب إن تغفر فهذا ظننا ... وإن تعذب كنت عدلا منصفا
قادر ربى على كلتيهما ... فاقض بالأولى بجاه المصطفى

السابع: الورع، وهو خمسة أشياء: ورع عن الحرام، وورع عن المكروهات، وورع عن الشبهات، وورع عن المباحات، وورع عن الأغيار.

فأما الورع عن الحرام فهو سلامة الدين عن طعن الشارع فيه.

وأما الورع عن المكروهات فهو السلامة من الوقوع فى العطب.

وأما الورع عن الشبهات فهو استبراء للعرض والدين.

وأما الورع عن المباحات فهو فضيلة عند القوم واجب إلا على حد الضرورة.

وأما الورع عن الأغيار فهو أن لا تختلج شركا بالله ولا يطرق قلبك سواه، فيرى الناس أمثال أفياء، قال ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، وأجريتم الدموع كالأنهار، فلا ينفعكم إلا بورع صادق.

الثامن: التقوى، وهى لغة قلة الكلام، واصطلاحًا التحرز بطاعة الله عن مخالفته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقال بعضهم فى المعنى أبياتًا:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخرى وعند الله للتقوى المزيد
وما لا بد أن يأتى قريبًا ولكن الذى يمضى بعيد

التاسع: الزهد وهو قصر الأمل ليس هو بأكل الغليظ ولا بلبس العباءة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1] وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدًا فى الدنيا ومنطقا فتقربوا به.

وهو خمسة أقسام **الأول**: أن تزهد ما فى أيدى الناس يحبك الناس **الثانى**: أن تزهد فى الدنيا يحبك الله، **الثالث**: أن تزهد أقوالك وأفعالك وأحوالك والتبرى منهم، وترحل عن علمك وعملك، **الرابع**: أن تزهد المقامات والتصرفات والكشف والكرامات عند الواردات، **الخامس**: أن تزهد ما سوى الله، والزاهدون هم الآمنون الوارثون ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2] ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾[3] ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[4].

العاشر: الصبر، وهو حبس النفس عن الشكوى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5] وقال تعالى

---

(١) سورة النساء آية ٧٧.
(٢) سورة الأعراف آية ١٢٨.
(٣) سورة المؤمنون آية ١١.
(٤) سورة القصص آية ٥.
(٥) سورة آل عمران آية ٢٠٠.

لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣) وهو ثلاث مراتب: **الأولى** الصبر على ترك المخالفات، بأن يحبس نفسه عن ما يخالف الشرع، وعن شكوى البلايا، والمحن الظاهرة والباطنة عن كل أحد، إلا عن شيخه، فإن شكوى ذلك إليه لا يقدح فى صبره، لأنه ينظر فى إصلاح ظاهره وباطنه، وإن أهل الله تعالى يفرحون بالبلايا ولا يشكونها، وذكر أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أصابته البلايا، وكان يعرف الاسم الأعظم فقيل له: لو دعوت الله به يكشفها عنك، فقال: إن البلايا هدايا الله تعالى، وأنا أكره أن أرد هدايا الله، أرأيتم لو أهديتم هدية لشخص فردها عليكم فهلا تتضررون بذلك؟ قال: كذلك هدايا الله أحق أن تقبل منه هداياه، قال تعالى ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٤) وإن النصر مع الصبر ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٥).

وبالجملة أن من قصد طريق الآخرة وأراد العبادة زادت عليه البلايا وتكاثرت عليه المحن، فيكون أشد محنة من غيره، وكل من كان أقرب فمصائب الدنيا عليه أكثر والبلايا عليه أشد، قال ﷺ: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الإنسان على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، واشتدت عليه البلايا، ولا تزال البلايا بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة» وما أكرم العبد على الله إلا وزاد البلاء عليه شدة، فإن لم يصبر على ذلك

---

(١) سورة الكهف آية ٢٨.
(٢) سورة طه آية ١٣٢.
(٣) سورة الزمر آية ١٠.
(٤) سورة الرعد آية ٢٤.
(٥) سورة الشرح آية ٦.

وإلا لم يصل لمراده، ولا يستقيم له طريق بل يشتغل عن العبادة بما أصابه من الهم والغم والحزن والفكر، وذلك هو الخسران المبين، ويفرغ قلبه من خوف الله وعظمته، وقال الفضيل: من عزم على قطع الطريق فليجعل بين عينيه أربعة أبواب من الموت: موت أبيض، وموت أسود، وموت أخضر، وموت أحمر، فالموت الأبيض الجوع، والأسود ذم الناس له، والأخضر وقائع البلايا بعضها على بعض، والأحمر مخالفة النفس والشيطان، له منه الصبر على الطاعات بأن يكلف كل عمل شاق يعسر عليها ارتكابه، لعل ذلك يوصلها إلى مرادها.

ثم قال فى المعنى:

نفس المحب على الأسقام صابرة ... لعل مستقمها يومًا يداويها
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها
الله أعلم أن النفس قد تلفت ... شوقًا إليك ولكنى أهنيها

ثانيها: الصبر على العزلة والخلوة والفرار من الخلق جملة كافية إلا من شيخه.

ثالثها: الصبر على الحضور مع الحق وعدم التفرقة بالخواطر الموجبة للتشتت والتفرقة والخروج من الجمعية بالله، وهو ـــ أعنى هذا الصبر ـــ حقيقته التوقى عن ملاحظة الأغيار ورؤية الآثار، ففى ذلك مرارة ومشقة شديدة فى ابتداء الأمر، فينبغى للسالك المكابدة للصبر على ذلك حتى تزول الوحشة ويحصل الأنس، فينقلب صبره لذة، وكراهته رضاء، وفرقته جمعًا، وجمعه فرقًا، وينطوى بساط الصبر.

وأنشد بعضهم فى المعنى أبياتًا:

إذا جيش الأحباب جيشًا من الجفا ... بنينا من الصبر الجميل حصونا
وإن ركبوا خيل الصدود مغيرة ... أقمنا عليه للوصال كمينا

وإن جردوا أسيافهم لقتالنا لقيناهم بالذل مدرعينا
وإن لم يراعوا ودنا ووصالنا صبرنا على أحكامهم ورضينا

قال الجنيد ﷺ: الصبر تجرع المرارة من غير تعبس ولا شكوى لأحد.

صبرت ولم أطلع سواك على صبرى
وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى
إلى دمعتى سرًا فتجرى ولم أدر

الحادى عشر: الشكر، وهو عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على الوجه المخصوص، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١) وحقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

الثانى عشر: القناعة وهى الاكتفا بالموجود، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(٢).

قال بعض المفسرين: الحياة الطيبة فى الدنيا القناعة، ثم قال:

اقنع بما يأتيك واستعمل الرضا فإنك لا تدرى أتصبح أم تمسى
فليس الغنا من كثرة المال إنما يكون الغنا والفقر من قبل النفسِ

وقال ابن عمر: الطمع فقر، واليأس غنًى، وسئل بعضهم عن ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد أن عقلوه وحفظوه قال: يذهبه الطمع وشهوة النفس وطلب الحاجات إلى الناس، وقال ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى» وقال الترمذى: القناعة رضى النفس بما قسم الله لها من الرزق، ثم قال شعرًا:

---

(١) سورة إبرهيم آية ٧.
(٢) سورة النحل آية ٩٧.

الرزق يأتى وإن لم يسع طالبه حتمًا ولكن شقاء المرء مكتوبُ
وفى القناعة كنز لا نفاد له وكل ما يملك الإنسان مسلوبُ

الثالث عشر: التوكل، وهو الخروج عن الأسباب ثقة وتوكلا بمسبب الأسباب، بأن يكون بين يدى سيده كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف يشاء، فلا يكون له حركة ولا تدبر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١) وقال بعضهم: قد يكون التوكل مع تعاطى الأسباب بشهود الحق تعالى فى الحركات والتدبيرات، فليس التوكل ترك الكسب ولا الكسب، بل هو سكون القلب تحت مجارى أقداره تعالى مع شهود الله بالتأثيرات فى أثر ما وعدم الخروج من حضرة المشاهدة فى الأشياء، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٣) وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾(٤) وقال ﷺ: «اعقلها وتوكل» فذكر التوكل مع السبب فى كل من الآية والحديث، ولأن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تناف توكل القلب بعد ما تحققه العبد أن التدبر من قبل الله عز وجل، لا من قبل النفس، وقال أبو على الدقاق: للمتوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن قلبه وتطمئن نفسه إلى وعد الله، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه تعالى، وصاحب التفويض يرضى بحكمه.

فهذه أصول الطريق وليس لك بدون هذه الأصول وصول، ولا من غير هذا الباب دخول، إلا أن يتكرم عليك مولاك بالقبول.

---

(١) سورة الطلاق آية ٣.
(٢) سورة المائدة آية ٢٣.
(٣) سورة مريم آية ٢٥.
(٤) سورة الملك آية ١٥.

وأما مراتب الطريق فثلاثة: شرعية، وطريقة، وحقيقة.

فالشرعية ما جاء به النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1] الآية، وقال ﷺ: «أتيتكم بشريعة بيضاء نقية لم يأت بها نبي قبلي، ولو كان أخي موسى في زمني، وسائر الأنبياء لم يسعهم إلا اتباع شريعتي تمسكوا بها أولو الألباب فنجوا ومشوا على كاهل الشريعة، فحاصلها لك متاعك ولي متاعي بالإنعام والفضل لهم من الله وهي لعامة المسلمين تبين الحلال من الحرام، ويقيم بها حدود الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[2] والطريقة، لي متاعك ولك متاعي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3] وقال ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن، لا يخذله ولا يحقره، أمرهم شورى بينهم» فالطريقة قصده تعالى بالعلم والعمل، وقال: هي الأخذ بالتقوى وما يقربك إلى المولى من قطع المنازل والمقامات.

والحقيقة هي الوصول إلى المقصود بالسر بالروح، ومشاهدة نور التجلي، وقيل: أن يشهد بنور أودعه الله في سويداء قلبه، يشهد بذلك النور، إذ كل باطن له ظاهر وكل ظاهر له باطن، وسر الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة، ومثّل بعضهم الشريعة بالسفينة، والطريقة بالبحر، والحقيقة بالمعادن، فمن ركب في السفينة عام في البحر، ومن عام في البحر لا يخلو من اطلاعه على تلك المعادن، فإذا ركب المريد سفينة شريعته واستعمل أنواع مجاهدته وصار يهوى عشقه ورغبته في بحر فيض طريقته اغتنم جواهر حقيقته، ومثّل بعضهم ذلك باللوزة،

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٨.
(٢) سورة الطلاق آية ١.
(٣) سورة الحجرات آية ١٠.

فالشريعة كالقشر والطريقة كاللب، والحقيقة كالدهن، فلا وصول إلى الدهن إلا بعد معاناة اللب على نار المجاهدة ليظهر بها سر المشاهدة، فالشريعة على حدود فمن تعداها أقيمت عليه الحدود، والطريقة لها صدق وجهد معهود، فمن تعداه حرم الورود والحقيقة لها شهود باطن فى ظاهر هذا الوجود وخارج عن طور التفرق المعدود، فاعلم أن الحقيقة نتيجة الطريقة والطريقة نتيجة الشريعة، لأنك إذا اصطفيت ـــ يعنى عملت بما هو أقرب إلى الورع والتقوى، غير ملاحظ إلى الرخص من العلم والأعمال، بل تأخذ من الأحوط، ومن كل شيء أحسنه تظهر معها الطريقة، وإذا انتخبت الطريقة تظهر منها أسرار الحقيقة.

وسئل بعضهم عن حكم الشريعة والطريقة والحقيقة فقال: إذا أكل الصائم بطل صومه فى الشريعة، وإذا اغتاب بطل صومه فى الطريقة، وإذا خطر بباله سوى الله بطل صومه فى الحقيقة، ولا يمكن الوقوف على أسرار الحقيقة إلا بإثبات الأعمال المبينة ببيان صاحب الشرع، فإن كل طريقة تخالف الشريعة باطلة، وكل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب والسنة فهى إلحاد وزندقة، ومن زعم أن العبور من حجب الشريعة والوقوف على أسرار الطريقة بما يخالف الشريعة فقد غلبت عليه الضلالة والنسيان واستهواه الشيطان فى الأرض حيران حتى أوقعه فى أودية الهجران وأسكنه فى مسكن الخذلان.

ولله در القائل شعرًا حيث قال:

على طريق شرع الله نسير إلى العلا فمن زاغ لأرض ثقل ولا سما
ومن سار بالمشروع لله صانه ومن زاغ مطرودًا والله ما نما

وقال بعضهم: الشريعة أن تعبد الله، والطريقة أن تحضره وتخشاه، والحقيقة أن تشهده وتراه، فالشريعة تعلم ومجاهدة، والطريقة حب ومصادقة، والحقيقة

مشاهدة ومعاينة، ولا تباين بين الحقيقة والشريعة لتلازمهما معًا، لأن الطريقة إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة، فبطون الحقيقة فى الشريعة كبطون الزبد فى اللبن، والمعدن فى الكنز، فبدون خض اللبن لا يظهر الزبد، والحفر بمثابة الطريقة، والمراد من الشريعة والحقيقة والطريقة إقامة العبودية والتحقق بها على الوجه المراد منك، ولذا دعى الله حبيبه ليلة الإسراء بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾(١) قال ابن عطاء الله: الحقيقة عين الحكمة، والشريعة أمرها، فمن خالف الأمر خالف العين.

تنبيه: اعلم أن الحقيقة مبنية على أسرار خفية وإشارات علية ورموز عجيبة والغاز غريبة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾(٢) الآية، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣) وقال ابن عطاء الله: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم، ولا يدرى تلك الأمور إلا من سار فى طريقة الأفراد وصاحبهم وكشف له عن سر حقيقتهم واستظل بظل ركبهم، وترقى بالصدق والعشق فى حبهم، فأدركوه المدارك وسلكوه المسالك، لأن الطرائق عدد أنفاس الخلائق، إلا طريقتهم واحدة، فإذا فهم تلك الأشائر ووردت عليه البشائر ساح، فإذا كتم ما أطلعه الله عليه وأخفى ما ظهر من الأسرار لديه زاده الله من فضله الوافر، وأمده بمدده السافر، قال تعالى فى كتابه المجيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾(٤) فشكر الأسرار صونها عن الأغيار، لأنها ليس فى كشفها لهم فائدة،

---

(١) سورة الإسراء آية ١.
(٢) سورة آل عمران آية ٧.
(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢.
(٤) سورة إبراهيم آية ٧.

ومثاله: كمثل من قدم لأهل القبور مائدة وأمرهم بالدعاء لها، فالناس على ثلاثة أقسام: منكر، وهذا لا يجزى معه الكلام، بل الكلام معه فى ذلك حرام، والثانى عارف بالله، وهذا لا يحتاج، لأنه صاحب المقام، والثالث جاهل محب مريد مسلم معتقد، وهذا هو الذى يتكلم معه لبيان المرام، ولهذا لما سئل ابن عباس عن سيد الناس ﷺ بقوله: يا رسول الله أحدث بكل كلام أسمع منك؟ قال: «نعم، إلا أن تحدث بحديث لا يبلغ عقول القوم ذلك الحديث، فيكون على بعضهم فتنة» ففى قوله ﷺ: «على بعضهم فتنة» إشارة إلى المنكر، فإن المسلم والعارف لا ينكران ذلك لشرفهم على الأم، وفى رواية عنه ﷺ أنه قال: إنى لأعلم فى قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾[1] علما لو قلته لكفرتمونى، وفى قول أبى الدرداء: لو قلت لكم كل ما أعلم لرميتمونى بالقشح، وفى قول سلمان الفارسى: لو حدثتكم بكل ما أعلم لقلتم: رحم الله قاتل سلمان، وفى رواية أبى هريرة: أعطانى خليلى محمد ﷺ جرابين من العلم، الواحد بثثته لكم، والآخر لو قلته لقطع منى هذا الحلقوم، وفى قول كامل الأسرار الإلهية على بن أبى طالب: إن بين جنبى علمًا لو قلته لزلتم هذه عن هذه، وأشار برأسه عن جثته.

واعلم بأن العلوم شتى، فعلم مشروع، وعلم مخير، وعلم مكتم.

وفى قول الشريف الرضى حفيد على بن أبى طالب قال فى المعنى شعر:

يا رُب جوهر علمى لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إنى لأكتم من علمى جواهره ... كيما يغر بذى جهل فيفتتنا

---

(١) سورة الطلاق آية ١٢.

وقد تقدم من قبلى أبو حسن إلى الحسين وأوصى بعده الحسنا

إشارة إلى أنهم اطلعوا على أمور يجب كتمها عن الناس فكتموها، وعلوم بنحوها وطلبوا بتعظيمها فعظموها.

وقد قال القائل:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

أى أهل العلم اللدنى الإلهى، يجب عليهم تعظيمه، وتعظيمه كتمه عن غير أهله، فيتجاهل العارف بما تجاهل به الجاهل، فيختفى العارف بالجهل فلا يعرف من الجهال، وربما سألوه عن أمر فلا يخبرهم به لكماله ورفعة مرتبته ونظره للحكمة السائرة لمخلسه فإنه من الحكمة التى يجب كتمها عن غير أهلها، فيجب على كل عالم بعلم من العلوم التى سرها مكنون أن يخفيه عن غير أهله، فإنه عند غيرهم موهوم، لحديث: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله...» والحديث فى علم الباطن سر من أسرار الله وحكم من حكمة الله يقذفه فى قلوب من شاء من عباده، فكيف يجوز إفشاء سر الله؟ لأنه ربما كان فى إفشائه إفشاء سر الألوهية، وإفشاؤه كفر عند أهل التحقيق، فلا يبدى الأسرار إلا عند أهل الأذكار المغلوب عليه بالحال، وهذا ناقص عن درجة الكمال.

قال الشافعى ابن إدريس ﷺ مشيرًا لذلك المقام فقال:

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى

ولا أنثر الدر النفيس على الرممِ

فإن يسر الله الكريم بفضله

وصادفت أهلا للعلوم وللحكمِ

جلست مفيدًا واستفدت ودادهم
وإلا فمخزون لدىَّ ومنكتمِ

ولذا ترى بعض السالكين إذا غلبه الحال بذلك يبغض ما هناك أنكرت عليه الأصحاب والخلان، ورموه بالزور والبهتان وترقوا منه إلى سب من ينسب إليه ومن يعول فى ذلك المشروب عليه، ثم يترقون إلى سب أهل ذلك الطريق ويستطيلون على أحوال أولئك الفريق، فربما أورثهم سوء الأدب إلى العطب، فلذا أوجب الكتمان فى مثل هذا الشأن، وإن الأولى ترك التكلم ولو بين الأقران لما يخفى فى ذلك من الدسائس النفسانية، ولما فى ذلك من المقامات العلية.

والأولى ما يشير للمنكر على أهل الأحوال قول من قال:

خاطب الناس بالذى ألفوه ... وتجنب خلاف ما ألفوه
إن فى الجاهلين عذرًا عظيمًا ... لو يرون التحقيق ما عرفوه
من نهاهم عن غيهم وهواهم ... ضربوه بالسوء أو تلفوه
فتجاهل مع الجهول وسلم ... لهم فى المحال مذ مدحوه
وإن كنت مبصرا عند عمى ... فاكتم الحق حيث لم يعرفوه

البـــاب الرابع

فيما يتعلق بالشيخ وشروطه وآدابه
وبيان موضوعه وأحواله
وبها يعلم من صلح للإرشاد والسلوك
والمشيخة ومن لا يصلح

اعلم أن من كان متصدرًا للإرشاد يشترط أن يكون له عقل يدل به إلى الهداية، وعلم يرشد به المهتدين لأمر دينهم، وإن لم يكن متجرا فليكن له اطلاع بقدر ما يزيل به الشبه والتلبس التى تعرض بالمريد فى البداية، من أحوال التوحيد وغيره ليغنى مريده عن سؤال غيره، عارفًا بكل ما يرقى المريد أو يقطعه عن الترقى من سائر الأعمال الظاهرية والباطنية، فإذا مرض مريده داواه، وإذا حنث أفتاه، وافتقار ينفى به التدبر والاقتدار، فيكون فى ابتدائه قدرى وانتهائه جبرى بالمثل وصفاء يصفيه من الأكدار وأدب يجلسه مع الجبار وقناعة تورثه الغناء وخوف يحجزه عن المعاصى ورجاء يسارع به إلى الخيرات، وحسن خلق يدفع به الحمقة، وشفقة تورثه الرفق، وآداب فى نفسه كثيرة، منها الزهد فى الدنيا والتقليل منها، وعدم المبالاة بها وأهلها، والسخاء، والجود، والكرم، ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، واجتناب الخلاعة والضحك، وملازمة الحلم والصبر والورع والخشوع والتواضع والتنزه فى دنىء الاكتساب، وملازمة الوظائف التى جاءت بها السنة، كقص الشارب وتقليم الأظافر وتسريح اللحية ونتف الإبط وحلق العانة والبخور وإزالة الروائح الكريهة، واجتناب الملابس الدقة وترك كل ما قيل فيه: إنه بدعة، ولو مباحة، ولا يعجب ولا يتكبر ولا يحتقر أحدًا من المسلمين، ويرى لكل مسلم بركة.

ومن آدابه مع مريديه أن ينزلهم منازلهم، الكبير كبيرًا، والصغير صغيرًا، لخبر: «نزلوا الناس منازلهم، فإن لكل إنسان مقامًا» قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ

مَّعْلُومٌ﴾(١) ويتألف كلا منهم بما يراه مقربا له فى صحبته، وإذا أعطى مريدًا شيئًا أسر ذلك له، وأوصاه بكتمه، إما ببشرى أو شر يأتى، أو بفتح أو بكشف أو بواقعة أو بمقام أحد من الإخوان، وعليه الإخلاص فى النصح، وبذل الهمة فى الإرشاد والتعليم فلا يخلو يومًا عن تعلم من معه، أو من جلس معه، وعليه بالعفة عن ما فى أيديهم، ولا يكلفهم فى حقه ما لا يطيقون، ولا يرتب عليهم من الأعمال ما يسأمون، ولا يكثر معهم الانبساط، ولا ينقبض عنهم كل الانقباض ولا يضيق عليهم كل التضييق، ولا يقرهم على ما يزرى من الأحوال، ولا يأكل بحضرتهم، ولا يكثر بمجالستهم، وإذا طلبه أحدهم أن يذهب إلى بيته أو يأكل من طعامه، ولو كان بحارته أو بقريته فلا يجبه، لئلا تسقط حرمته عندهم فلا ينتفعون به، ولا يجيب من دعاه بالتفرز والعفة، ويزورْ غبا ليزداد حبا، ففى كل سنة مرة أو نصفا مرة، أو سدسا مرة، وليلة واحدة، وتكون فى خطابهم على غاية التلطف، فينادى أحدهم إن كان أكبر سنا منه: يا سيدى فلان، ويا عمى فلان، وإن كان مساويا له يا أخى ويا حبيبى، وإن كان مثل أولاده: يا ولدى ويا خليلى، ويحذر من السب والشتم والطعن لئلا تنفر نفوسهم منه، ولا يتميز عليهم، فإن رضوا بخدمته لهم خدمهم من غير رياء ولا كبر، وإذا دخل عليه المريد يبش فى وجهه، ومن قبلّ يده قبَّل رأسه، وإذ صنع معه معروفًا كافأه، وإذا أراد مريده الانصراف دعا له من غير سؤاله، وإذا دخل هو على مريده فيكون على أكمل الأحوال وأحسن الهيئات من نظافة الثوب وطيب الرائحة والمركب، وإذا جلس عندهم فبالسكينة والوقار، وتغطية الرأس، ولا يكثر الالتفات، ولا يعبث بلحيته

---

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤.

ولا بشيء من ثيابه، ولا ينام بحضرتهم، ولا يمد رجله فى مجلسهم، ولا يحد نظره فى أحد، بل يكون خافض الطرف مسبل الأعين، ولا يسرع لهم فى الجواب، وإذا كثر الكلام منهم صمت هو أو قام، ويتفقد من غاب منهم بالسؤال عليه والبحث عن سبب انقطاعه، ثم إن كان مريضًا عاده، أو فى حاجته أعانه، أو له عذر دعا له، ولا يسيء خلقه عليهم، فإن لم يجد ملكة عند الغيظ فليقم من ذلك المجلس، فإنهم فى الحقيقة يعتقدون به الخير، والحلم والعلم والعفو والمسامحة والأدب، ويقتبسون منه ذلك، وإذا حضر معهم فى وظيفة عمل فيها بنشاط وقوة وهمة لتقوى هممهم على ذلك، ويقرر لهم العلم الوارد بالأخبار والآثار، ولا يخرجهم عن دائرة العلم والأذكار والصلاة على النبي المختار مذ كان بمجالسهم، فإذا تقرر ذلك فاعلم أنه يجب على مريد الطريق يقصد عند إنابته وتوبته واستيقاظه من نوم غفلته شيخًا من أهل زمانه ببلدته أو بإقليمه، معتقد فيه الخير مؤتمن على دينه، واصل إلى الله، خبير بالحال والمقال والمنازل والأهوال، مترقى مقامات الرجال الكمل الأخيار، شرعى حقيقى سلوكه على الكتاب والسنة، وذلك بعد تمام سيره إلى الله، مع مصاحبة إذن شيخ له مرشد واصل إلى تلك المقامات العلية أذن له، كذلك واصل أيضًا مسلسلا إلى النبى ﷺ إلى الله، عز وجل، بالضبط والحفظ ومعرفة الكل بالمقامات والترقى والإذن بالسلوك، لا عن جهل ولا عن حظ نفس، ولا شهرة أمر، بل بموت النفوس دخلوا حضرة القدوس، ومشاهدتهم للكثرة فى الوحدة والوحدة فى الكثرة، فبالتعبير أن آخرهم مشاهد محقق مثل أولهم، فإن سألت كبيرهم عن أمر أجابك صغيرهم، فكبيرهم مثل صغيرهم وعكسه، لتحقق

الجميع بالمشاهدة، قال تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢) والعارفون بالله هم الوسائل، فالشيخ الواصل وسيلة مريده إلى الله، وبابه الذى يدخل منه على الله، فهم أبواب الحق، وقال أبو على الدقاق، قدس الله سره: الشجرة التى تنبت بنفسها من غير صاحب لا تعيش ولا تثمر، وإن عاشت وأثمرت كان ثمرها من غير لذة، وسنة الله جارية على أنواع الأدب من النسب، كما أن الوالد والتناسل الحقيقى لا يحصل إلا بواسطة والد، والوالدة كذا التوالد، والنسل المعنوى حصوله بغير مرشد معتذر لحكمة ما جرت عادة الله به، ومن ذلك أن أقطاب الأرض لم يخرجوا عن الوسائل، فكان السيد البدوى مشاشى، والدسوقى شاذلى، قالت الأشياخ: من لا شيخ له مرشد فمرشده الشيطان، وقال بعضهم: لولا المربى ما عرفت ربى.

ولقد أجاد أستاذنا السيد مصطفى البكرى حيث قال:

إن لم تكن تقصد لحى سعادى ... لا تنزلن منازل الأسادى
فإن أردت فخذ أمامك سيدا ... يحميك من طرد ومن إبعادى
من بعد سيره بفناء ظل ركابه ... واعرف له حق المقام البادى
إياك أن ترقى بلا درج فإن ... تصعد هلكت ولم تنل لمرادى
أو أن تسير بغير معرفة بأرض ... الفوز أرض ذر المكان الشادى
هذى عروس أين من يجلى له ... هذى المليحة أين من يك صادى
إياك دعوى الوصل قبل وصالها ... فإذا فعلت فضحكت فى الأشهادى

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٠.
(٢) سورة المائدة: آية ٣٥.

فالزم إلى حى السكون ميمما أرض الخفا ومنازل الأفرادى

فإذا ظفرت أيها الطالب الصادق بالشيخ المذكور العارف بدقائق الطريق فشد عليه كلتا يديك فإن وجوده كالكبريت الأحمر، لا يكاد يوجد لندرته، فسلم نفسك لخدمته، واجتنب الفحش لمخالفته، واجعل الصدق حالك والعمل منوالك، والفناء فى اختيار الشيخ فائدتك ورسمالك، وترك الآثار والأغيار رأس مالك، وكن بين يديه كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء، ليطهرك بماء الفيض من جنابة الاختيار والاقتدار، فيا سعادة من أحسن أدبه مع أستاذه لأن المشايخ العارفين الواصلين أبواب الحق والواسطة بين المريد وبين الله تعالى.

تنبيه: قال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى شرح ديوان سيدى عمر بن الفارض، رحمه الله: اختلف علماء المحققين أنه ليس من المتأخرين فى الاكتفاء بالكتب عن المشايخ، ثم كتبوا بالبلاد فكلٌ أجاب على حسب فتحه، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة: فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق يعرف مدار العلوم، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح، وشيخ الترقية يكفى عنه اللقا والتبرك، وأخذ كلٌ من وجه واحد، ثم الثانى النظر إلى حال الطالب، فالبليد لا بد له من شيخ يربيه، والفطن اللبيب تكفيه الكتب فى التربية، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه، وإن وصل لابتلائه برؤية نفسه.

الثالث: النظر للمجاهدات فى التقوى لا تحتاج إلى شيخ فى تمييز الأصلح منها، وقد يكتفى ذو الهمة بالكتب، ومجاهدة الكثيف، والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع إليه فى فتوحها كرجوعه ﷺ للعرض على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادى ظهورها فجاءه الحق، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها، والله أعلم.

البـــاب الخامس

فى آداب المريد مع شيخه

اعلم أنه لم يبلغ أحد إلى حالة شريفة ودرجة منيفة إلا بصحبة الأشياخ والاجتماع بهم، والأخذ عنهم نفسًا بنفس، وملاحظتهم وملازمة الأدب معهم، ودوام خدمتهم، ومن صحبهم على غير طريقة الاحترام حُرم فوائدهم وبركات نظرهم، قال سيد الطائفة الجنيد ﷺ: من حرم احترام المشايخ ابتلاه الله بالمقت بين العباد، نسأل الله العافية، وقال بعضهم: إنما حُرم المريدون الوصول إلا بتركهم الأصول، وعدم الاقتداء بالمشايخ والسلوك بالهوى، فطالت عليهم الطريق، وربما مات أحدهم فى أثنائها، ولم يحصل له حاصل، وقال بعضهم: من حالس هذه الطائفة ثم لم يتأدب معهم سلب الله نور الإيمان منه، قال الشيخ الأكبر محيى الدين ابن العربى:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله ... فهم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى توديهم ... على الدلالة تأييدا من الله
الوارثون هم للرسل أجمعهم ... فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم فى محارهم ... لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم ... عن الشريعة فأتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثرا ... فإنهم ذاهلون العقل فى الله
لا نقتدى بالذى زالت شريعتهم ... عنه ولو جاء بالأنباء عن الله

فآداب المريد مع الشيخ كثيرة، ولنذكر لك نبذة.

منها: أن لا يدخل عليه إلا مطهرًا، ولا يطرق عليه باب خلوته إذا كان فيها، بل يذكر الله جهرًا فإذا سمعه وأراد الاجتماع به وأمره بالدخول دخل عليه، وإلا انصرف، وأن لا يجلس فى مكان حيث يراه إذا دعاه سمعه، وإذا جلس عنده أطرق

رأسه وصمت بلسانه وقلبه فلا يتكلم بحضرته إلا جوابًا، وإذا تكلم خفض صوته: ولا يكتم شيئًا مما خطر له من محمود أو مذموم، لكن لا يذكر من الخواطر إلا ما دام وتكرر عليه، ولا يذكره بحضرة الناس، وأن يسلم لشيخه جميع ما يقوله، فلا يعترض عليه قطعًا ولو بالقلب، فإن الشيخ ربما يكون رأى بالمريد شيئًا لا حقيقة له، مكرًا به لسوء أدب وقع منه وهو لا يشعر، ووقع لسيدى يوسف العجمى ﷺ أنه امتحن مريدًا تفرس فيه الخير، فلم ينفر منه، وكانت الفقراء عندهم غيرة منه لما رأوا تقديم الشيخ له، فأراد أن يعلمهم بمرتبته وأنه يستحق ذلك دونهم، فأمره أن يذهب لمكان ويأتى بالمرأة التى فيه، ويأتى صحبتها بالجرة، فذهب ذلك المريد فوجد المرأة والجرة فأتى بها ودخل على الشيخ بالمرأة والجرة، فأخذ الشيخ المرأة والجرة ودخل مكانًا وأغلق الباب عليهما ساعة، فتغيرت الفقراء كلهم إلا ذلك الشاب، لم يتغير لذلك، فقال الشيخ له بعد ذلك: ما ترى؟ فقال: يا سيدى ما اتخذتك معصومًا من الوقوع فى أقدار الله تعالى، وإن سيآتكم حسناتنا فلا تضر الإساءة مع الحب، ولا تنفع الحسنة مع البغض، وإنما صحبتك لأنك عارف بالله لتدلنى على الله، والطريق الموصل إليه، لأنك أعرف بها منى، قال له: اذهب بارك الله فيك.

واعلم أن النفور لا يكون إلا من النفس وعدم المعرفة بالله، لأن من عرف الله وذاب نفسه لا يكون له اعتراض على الله فى فعله أبدًا، خصوصًا مع الأشياخ، فيكون معهم كالنعال ومع غيرهم كالتراب، لا قيمة له فى حياته، ولا جاها ولا مقامًا لخبر: «من ظن أن له قيمة عند الناس سقط من عين الله، ومن ميز نفسه على فظهر صار الوجود يلعنه.

ومن آدابه أنه لا يأكل مع شيخه حتى يدعوه ولا يمشى أمامه إلا ليلاً، أو لضرورة، ولا يكتم عليه شيئًا من أحواله، ولا يفعل معهما إلا بمعرفته، ويقوم نقيامه، ويقبل عليه إذا جاء، وإذا أراد أن يذهب استشاره، ولا ينام بحضرته، ولا يتثاءب ولا يتكئ ولا يستند على شىء ولا يتربع إلا أن يأمره، ولا يأكل وهو ينظر إليه، وإذا أمره بأمر امتثله، ولا يتأول كلام شيخه فى أمره أو نهيه، بل يحمله على ظاهره، ويسعى فيما ندبه إليه، وإن كان ظاهره مخالفا لظاهر النقل، فإن الشيخ أوسع اطلاعا منه، ومأخوذ على الشيخ العهد بالنصح لكل مسلم وبتقدير أنه غلط يبارك للمريد فى امتثال أمره أكثر مما يفعله المريد بهوى نفسه، وفى قصة موسى والخضر فى ذلك كفاية لكل معتبر، فإن موسى لما أراد صحبة الخضر حفظ شروط الأدب، فاستأذن أولا فى الصحبة، ثم شرط عليه الخضر عدم المعارضة فى حكم، فلما خالفه موسى تجاوز الخضر عنه أول مرة، والثانية، فقال له فى الثالثة، التى هى حد الكثرة ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[1] فكان موسى فى مقام التعليم، فإن الخضر كان فى علوم الباطن أعلم من موسى، بشهادة الله تعالى له وتزكيته.

ومن آدابه مع شيخه أنه لا يلبس ثوبًا ولا يطأ له على سجادة، ولا ينام على وسادته، ولا يسبح بسبحته لا فى غيبته ولا فى حضوره، وإذا وهب له شيخه قميصًا أو نعلاً أو رداء فليظهر توقير ذلك الشىء وليجتهد فى نفسه أن يكون على أخلاق الشيخ من الأحوال والدين والنظافة الظاهرة والباطنة، لئلا يسىء الأدب مع ذلك الشىء الذى كان من ملبوس شيخه، ولا يفعل معصية وهو لابسه، ولا يعطيه لأحد غيره، ولو أعطاه ما أعطى فربما يكون شيخه طوى فيه سرًّا من أسرار

---

(١) سورة الكهف: آية ٧٨.

الفقراء مما يغنيه فى الدارين ويقربه إلى حضرة الله عز وجل، وربما جمع له فيه جملة من أخلاق الرجال، كما طوى رسول الله ﷺ لأبى هريرة ثوبًا وضمه إليه، فما نسى بعد ذلك شيئًا.

والأشياخ ليس فعلهم سدى لأن مقامهم يعلو عن اللعب، ولا يمشى بنعل أعطاه له إلا فى مواطن الفرح، قال الشعرانى فى مدارج السالكين: وقد وهب بعض الأشياخ لمريده رداء فرأى ذلك المريد قد بسط ذلك الرداء على رجليه، فقال له: يا ولدى احفظ الأدب مع أثر الفقراء وعظّمه، وقال فى الكتاب المذكور: قلت: وقد رأى شيخي ﷺ يومًا وضعت رداء على رجلى فقال لى: يا أخى الزم الأدب مع من خالطته من ناطق أو صامت، فإن الله عز وجل ما جعل الرداء للرجلين وإنما جعله للكتفين، قال: وقع لى مرة أنى استحييت أن أمشى فى حارته بنعل، فخلعت نعلى ومشيت حافيًا فأعجبه ذلك منى، وقال لمن هو بمجالسه بخفض صوت: إذا كان هذا أدبه مع مخلوق لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فكيف يكون مع الخالق؟ وسُرَّ بذلك ﷺ، وكان سيدى أبو السعود أبو العشائر شيخ السيد داود الأعزب يقول: المريد الصادق هو الذى لا يتعب شيخه فيه، وكان يقول: ليس المريد من يتشرف بشيخه، إنما المريد من شرف شيخه.

ومن آدابه أن لا يجلس قط بين يدى شيخه إلا وهو مستوفز، كجلوس العبد بين يدى سيده، وليحذر كل الحذر من الإكثار من مجالسته له فيهون عليه وتذهب حرمته من قلبه فيحرم بركته ولا ينتفع به، كما هو شأن نقباء الأشياخ، فلا ينتفع به الخادم ولا الولد ولا الزوجة لاطلاعهم على مساوئ الشيخ.

ومن آدابه إذا قام من بين يديه لا يوليه ظهره، بل يقوم موجها له حتى يتوارى بجدار أو غيره، فإن المريد لا يترقى إلا إن لزم حرمة الشيخ، فإن تأدبه مع شيخه يرقيه إلى الأدب مع الله تعالى، فمن لم يتأدب مع شيخه فهو فى حضرة الدواب.

ومنها: أنه إذا دخل مكان الشيخ ولم يره جلس متأدبًا كأنه بين يديه، وعليه إكرام أولاده وأصحابه وأصدقائه وعشيرته حتى ما لا يعقل فى حياته وبعد مماته، ويدخل السرور عليه ما أمكنه، كتبليغ سلام محب، أو ثناء معتقد إن قيل ذلك، وإذا سمع من أحد شيئًا يكره فى حق أستاذه لا يبلغه إليه، وعليه رده ما استطاع، والجواب بالأجوبة الحسنة، وإقامة الدليل والحجة إن قدر، وإن لم يرجع هذا المنكر لزمه البعد عنه وعدم مجالسته له، وإذا شاوره شيخه فى شىء رده إليه، فإن ألح الشيخ عليه قال له: لعل الأمر كذا وكذا، ورأيكم أتم وأكمل، وأن يكون شيخه عنده له من المحبة والاعتقاد لا يوازيه أحد من أهل عصره حتى ينتفع به.

واعلم أن عمدة الأدب مع الشيخ هو المحبة له، فمن لم يبالغ فى محبة شيخه بحيث يؤثره على جميع شهوات نفسه لا يفلح فى الطريق، وأجمع الأشياخ أن شرط المحبة لشيخه أن يصم أذنيه عن سماع كلام كل أحد يحط فى شيخه، فلا يقبل عذل عاذل، حتى لو قام أهل مصر كلهم فى صعيد واحد لم يقدروا أن ينفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب لاستغنى عنهما بالنظر إلى شيخه، لتخليه فى باله.

وبلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن وعيل من نظره إلى أستاذه، قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه «قواعد الصوفية» سمعت سيدى على الخواص يقول: ألطف ما فى المحب ما وجدته فى نفسك من العشق والشوق المفرط والعشق المعلق حتى منعك ذلك النوم ولذة الطعام، ولا يدرى ذلك الحب فيمن

لا يتعين لك محبوب، فإن من ذلك تترقى إلى محبة الله عز وجل المطلقة، قالوا من أصعب ما فى الحب أن يصير المريد يحب الهجر من حيث كونه محبوبًا لشيخه، لا من حيثية أخرى، لأن الحب للشيخ عمدة الوصلة لا الهجر، فافهم.

ومن آدابه: أنه إذا حصل منه جناية على أحد بغير حق وجب عليه أن يقر بين يديه بالجناية على الفور، ثم يسلم لما يحكم به عليه شيخه من العقوبات للنفس على تلك الجناية، من سفر بكلفة له، أو خدمة شديدة، أو جوع، أو هجر، أو نحو ذلك، وأجمعوا أنه لا يجوز للشيخ التجاوز عن زلات المريدين، لأن ذلك تضييع لحقوق الله، وحقوق عباده.

ومن آدابه أن لا يفعل مع شيخه شيئًا يوحش قلبه منه، وإن الله يغضب لغضب الشيخ ويرضى لرضاه، كوالد الجسم، بل أعظم، لأن الشيخ لا يأمر المريد إلا بما أمر الله، فمن خالفه فقد خالف الشارع وحرم ووقع فى غضب الله تعالى، بحسب تلك المعصية من كبيرة أو صغيرة، فيا شقاوة من تغير قلب شيخه عليه وقتا من الأوقات، فلهذا كان غضبه أصعب من غضب والد الجسم، وبه تعلم أن حقه مقدم على حق والد الجسم.

ولله در القائل:

أقدم أستاذى على حق والدى
وإن نالنى من والدى العز والشرف
فذاك مربى القلب والقلب جوهرى
وهذا مربى الجسم والجسم من صدف

ويجب على المريد إذا لم يجد من يتأدب به فى بلده، ويعظم فى عينه ويعتقده أن يسافر إلى من هو منصوب للإرشاد والسلوك والترقى فى المقامات، عدا ما هو

من أرباب للرياسة والإمارات والسائرات تحت الإشارات وهم المطوعية، ثم إن قابلك الشيخ المسلك بالجفا فاصبر، لأن طريق الله عزيزة، فربما فعل معك ذلك ليريك عزية الطريق لتدخل إليها بالتعظيم والتبجيل، لأن الشيخ قد يمتحن المريد كما وقع لسيدى أبي السعود الجارحي مع الشيخ محيى الدين اللقانى، لما جاء يطلب الطريق فقال الشيخ:

يظن الناسَ بى خيرًا وإنى أشرٌّ الناس إن لم تعف عنى

بنصب الناس، وأشرٌّ، ففارقه ساكتا، وقال: هذا لا يعرف الفاعل من المفعول، فرأى رؤيا تدل على مقام الشيخ فجاءه يقصها عليه، فلما رآه الشيخ قال: الصواب رفع الناس وخفض الناس، فقال الشيخ محيى الدين: الله أكبر، فقال له الشيخ، على كل مخالف، كيف تطلب الطريق وتفر من نصبه، وتأتى برفعه، فتاب واستغفر.

وقال القشيرى: يجب على كل من زار شيخًا أن يدخل عليه بالحشمة والحرمة فضلا عن الشيخ، ثم إن أهله الشيخ لشىء من الخدمة عد ذلك من حزيل النعم، وليحذر من أن يقيم ميزان عقله الجائر الناقص على من يدخل عليه من الأشياخ، فربما مقته ذلك الشيخ فلا يفلح أبدًا بعد ذلك، بل بعضهم تنصر ومات على دين النصرانية، لأن من لم يتأدب مع الأشياخ سُلب منه الإيمان، وقد حكى عن سيدى محمد الشناوى أنه قال: مما من الله علىَّ به أني ما دخلت قط على شيخ أو جالسته إلا وميزان عقلى مكسورة، وأرى نفسى تحت نعاله، ولا أخرج من عنده إلا بمدد وفائدة.

ومن آدابه أنه لا يطلب من شيخه رد الجواب من رؤيا رآها، أو حادثة حدثت، بل يذكر حاجته ويسكت، فإن أجابه شيخه كان وإلا قبَّل يده

وانصرف، وأعرض بقلبه عن الجواب لئلا يصير لشيخه محكومًا بإلزام الجواب له، وهذه طريق تخالف طريق الفقراء، لأن طريق الفقراء مواجيد يجدونها، فإذا قال مريد: أنا ما فهمت هذا الكلام، يقول له الأستاذ: أحسن مرآة قلبك تفهم، ومنه قول الإمام:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى

انتهى. فعمل على طلب الجلا لا غير، وطريق الفقهاء أقوال ينقلونها فقط، ومن قال من المريدين لشيخه: «لِمَ» على طريق الاستفهام لم يفلح قط فى طريقهم، ومن قال من الفقهاء لشيخه: لِمَ كان الأمر كذا؟ فلح، فلكل طريق طالب يناسبها.

ويلازم مطالعة تأليف شيخه ويقدمها على غيرها من الكتب، ولا يعدل عنها إلا لضرورة طلب ما هو أبسط منه أو كتاب أحال هو فى تأليفه، ولكن لا بد من استئذانه والوقوف عند أمره، ولا يطلب علمًا على أحد وشيخه يعرف ذلك العلم، فإن لم يعرف، أو كان غير متصدر للتعليم شاوره: على من يقرأ عليه، فإن أشار عليه لأحد لزمه على أى حالة كانت، وإن قال له: اقرأ على من شئت فيختار لنفسه العالم العامل الصالح المنكبر الحليم المتواضع المعتقد فى طريق القوم، ويكون طلب علمه بعد سلوكه فى الطريق لا قبل، فإنك إذا وضعت العسل فى قشر الحنظل تمرر بمرارته والتبس على الجاهل أن العسل من أصله مر، وكان السلف الصالح إذا قدم لهم إنسان بدوه الطريق، وتعلّم أخلاق الفقراء، ثم يتعلم العلم.

ومنها: إن سأله شيخه عن مسألة فلم يرد عليه جوابًا فلا يعيد عليه السؤال فى ذلك الوقت بل يسكت به إلى وقت آخر ويرغب فى الاجتماع عليه ويؤلف

القلوب إليه، ولكن إن أمره الشيخ أن يجانب أحدًا من أصدقائه أو غيرهم وجب اجتنابه، ولا يغتر هو بإظهار شيخه محبة ذلك الطريق، لأن من شأن الشيخ الإقبال على كل الناس حتى لا يصير له عدو قط إلا من المجرمين الجهال، لسعة ما هو عليه من الأخلاق المحمدية، وإذا أقامه الشيخ فى خدمة الفقراء، سفرًا أو حضرًا، دون أن يجلس مجالس الذكر والعلم لا يتكدر من ذلك، فإن الشيخ إنما يستعمله فيما يراه خيرا له من سائر الوجوه كلها، ومتى تكدر المريد من تلك الإقامة أو رأى أن اشتغاله بغير ذلك أفضل فقد نقض عهد شيخه، فإن الشيخ أمين من جهة رسول الله ﷺ على أمته، بأن يفعل بهم ما يرى فيهم أنه يقدمهم وينهاهم عن ما يؤخرهم فى المقامات، فقد يكون ما يطلبه المريدون يورث عجبًا ورياء وشهرة، ومدحًا بين الناس فيحشر مع الخاسرين، وروى عن بعضهم أن شيخه أمره بخدمة البغل فى الاصطبل حتى دنت وفاة الشيخ، فتطاول أكابر أصحابه للإذن لهم بالخلافة بعده، فقال الشيخ: ائتونى بفلان، فأتوه به من الاصطبل، ففرش له سجادة فقال له: تكلم مع إخوانك فى الطريق، فأبدى لهم العجائب والغرائب نظما ونثرا وسجعًا، حتى انبهرت عقول الحاضرين، فرجعوا الذين كانوا يتطاولون للإذن وتعجبوا من ذلك، وكان هو الخليفة بعد الشيخ، فتعلم أن الأمور التى يقع فيها النفع راجعة إلى الشيخ لا إلى المريد.

ومن آدابه أن يكون فطنا لما يأمره به الشيخ أو ينهاه، لا سيما بحضرة من ليس من القوم، بل يفهم بالإشارة والرمز بأن لا يقنع بمجرد اعتقاده فى أستاذه ويتساهل فيما يأمره به أو ينهاه عنه، ويقول: نظر سيدى يكفى، فإن ذلك جهل فى الطريق، وقد قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: أسألك مرافقتك فى الجنة، فقال ﷺ: «أعنى على نفسك بكثرة السجود» فلم يجبه ﷺ إلا بالعمل لا بالاتكال

على دونك، وفي الخبر: «من أبطأ عمله لم يسرع به نسبه» وكان سيدى على وفا يقول: لا تطلب من شيخك أن يمنحك العلم والأسرار والترقى وأنت لم تطهر من الخبث وأعمال الفجار، فإنك إذا وضعت العسل ـــ كما مر ـــ فى قشر الحنظل تمرر بمرارته، والتبس على الجاهل أن العسل من أصله مر.

ومن آدابه: أن لا يتساهل بهجر شيخه له، فقد قال أهل الطريق: كل مريد هجره أستاذه فلم يتأثر من ذلك و لم يشق عليه و لم يبادر لتطييب خاطره مقته الله، ومكر به وطرده عن بابه، وقال بعضهم: كل مريد خاف أحدًا من الخلق مع وجود حب أستاذه فهو كذاب فى استناده إلى الشيخ، لأن المريد مع شيخه كولد اللبوة فى حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن يريد اغتياله، لا والله، وقال بعضهم: إذا صحت نسبتك من شيخك، وهى حبك فيه، والعمل بمقتضى أمره، كان تأثيره بالإمداد فيك أعظم من تأثير أذكارك وجميع أعمالك، وقال بعضهم: لا تطالبوا الشيخ بأن يكون خاطره معكم، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده، لأن همته مقرونة إلى حضرة الحق، لا إليكم، فالمريد هو الذى يتعلق به، وينبغى لك أن لا تفارق شيخك ولا خدمته حتى تعاين الطريق حالاً وقالاً وعلما، وتكثر من شكر الله الذى جمعك عليه، فإن كل مريد لم يصادف رجلاً يربيه يخرج من الدنيا وهو ملوث بالذنوب، ولو عبد الله عبادة الثقلين، لأن الشيخ يخرجه من الضيق إلى السعة ومن الظلمة إلى النور ومن الجهل إلى العلم.

ومن آدابه: أن يرى كل خير أصابه من الله كرامة وبركة لشيخه ورسوله، فإن نور كل مريد من نور شيخه، وما تراه أيها المريد فيك من السر والمدد فهو من فيض أستاذك، وجميع ما تراه من النقص والفواحش فهو من صفاتك، فإن

رأيت شيخك زنديقًا فى عينك فأنت زنديق، وإن رأيته صديقًا فى عينك فأنت صديق فى علم الله، وأما حقيقة الشيخ فلا يعرفها إلا من أشرف على مقامه، أو كان أعلى مقاما منه، فإن شيخك مرآة وجودك التى تصلح بها نفسك، فآل أمر المريد حينئذ أن تجلى له طويته بصفات أهل الصلاح والولاية، فإذا كشف لبصيرته عن قلب أستاذه رأى المريد صورة إصلاحه وولايته فى صفاء مرآة أستاذه، فيظن أن أستاذه هو الصالح الولى فيستمد من بركات ملاحظاته المتوالية وهممه الغانية، ثم لا يزال يطلب من أستاذه الدعوات المنيعة والخواطر الشريفة ويتودد إليه تودد المستأنس حتى ينفخ إسرافيل العناية فى صورة قلبه روح التخصيص الآدمى، فهناك يشهد أستاذه هو أدمى الزمان ومالك أزِمَّة الأزمان بحكم الإرث لصاحب هذا المقام فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهاب.

ومن آدابه أن يصير تحت مناقشة شيخه له ومخالفته لأغراضه، فإن ذلك دليل على أن الشيخ شم منه رائحة الصدق، ولولا شم منه ذلك ما ناقشه، وكان عامله معاملة الأجانب من الملاطفة والترحيب والتأليف، بل يثبت هذا المريد على مناقشة شيخه، فإن طريق الله لا تكون إلا بعد أن يموت مريدها كذا كذا ألف موتة، فإن كل مخالفة الهوى موتة، والأهوية لا تنحصر.

ومن آدابه أن لا يبدأ شيخه بالسؤال عن شيء مطلقًا إلا لضرورة، كأن يسأله عن بيان شيء من الأحكام الشرعية، أو رؤيا، أو واقعة، وبيان ذلك أنه إذا بدأ شيخه بالسؤال فقد أحوجه إلى رد الجواب، فيورث المريد زهوًا وعجبًا على الإخوان، ولا يغتر بحلاوة كلام الشيخ له ويظن أنه صار عنده فى أعلى مقام، فإن من سياسة الداعى إلى الله أن يؤلف الضعفاء بالكلام الحلو والإحسان وتخفيف الأوامر، فإذا رسخوا فى الطريق فله التحكم فيهم كيف شاء، فيزجرهم بمر الكلام

ويمنعهم من لذيذ الطعام والمنام، من إشارة قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1] ويحذر المريد من مجالسة شيخه على الدوام، وإذا سأله أستاذه عن شيء من أحواله الباطنة أجابه على الفور من غير تنكر، فإن الشيخ إنما يريد أن يعلم مقامه، ومن أعظم ما يقع للمريد فيه من سوء الأدب عدم حضور مجلس الذكر، فليذكر للشيخ، فإن ظهر له صدق عذره وإلا ناقشه وبيّن له عدم صدقه ليتوب، ومن علامة صدقه الندم على فوات ذلك المجلس حتى تضيق عليه الدنيا بما رحبت، ويترك عشاه وغداه من شدة الأسف، كالذى مات له عزيز، ولا يزال فى تشويش حتى يرضى عنه شيخه، وأقبح ما يكون من الناس الذين يسمعون مجالس الذكر فى بيوتهم ولا يحضرونها، وينبغى أن يوبخ نفسه بحضرة إخوانه، ويقول: يا فوزكم، حضرتم مجلس الذكر، وجالستم ربكم، وذكرتموه، ويا شقاوتي حيث حُرمت ذلك، لأن ذكر الله ومجالسه لا يعد لها شيء.

ومن آدابه أن يتجرد بالكلية إلى خدمة شيخه إذا سافر معه ولا يفارقه طرفة عين، إلا لضرورة، يتعفف من أطعمة الناس الذين يعزمون على الشيخ، ولا يأكل فى السفر إلا سد الرمق، لأن ذلك نافع له من وجوه كثيرة:

منها: قلة حاجته للبول والغائط والريح، لا سيما فى المركب والطريق القليل الماء، وإذا نام الفقراء فليكن نقيبهم سهرانا لا ينام، وإن تناوب النوم بالنوبة فلا بأس، وإذا أراد الشيخ بعض المريدين للسفر أو منعهم، أو من الذهاب لبيت من عزم عليه لا يتكدر، بل يفرح لكون الشيخ اعتنى به دون إخوانه، وميزه عنهم،

---

(١) سورة النساء: آية ٦٥.

لأن ذلك دليل على أن الشيخ غير غافل عن تربيته، وكذا لو مشاه طول الطريق وركب غيره لا يتكدر، بل يفرح ويمشي في ركابه، ويفوز بخدمته، وكل هذه الأمور إذا فرح بها رقته إلى مراقي الكمال، والله غني حميد.

ومن آدابه أن لا يفشي سر شيخه، ولو نُشر بالمناشير، ولا يجوز للمريد أن يتجسس على مقدار نوم شيخه أو أكله، أو كم يتوضأ في اليوم والليلة مرات، أو هل يأتي النساء كثيرًا أو قليلاً، فكل ذلك من عقوق الوالدين وكشف لسوأتهم، والعاق لا يُرفع له إلى السماء عمل، وربما كان اطلاع ذلك المريد على تلك الأحوال نقص مقام شيخه في قلبه، لجهله بأحوال الكمل فيهلك، كما مر، وينبغي أن لا يسافر إلا بإذنه مطلقًا، ولو لسفر الحج، لكن لا يخفى أن سفر الحج هو المحتاج للإذن، لا نفس الحج.

ومن آدابه أن لا يتزوج امرأة طلقها شيخه أو مات عنها، وإذا حصل منه هفوة في حضرة شيخه رجع وتاب، لو تغافل عنها الشيخ، خصوصًا ودأب المشايخ الإغضاء عن بعض هفوات من المريد سيما إذا كان قريب عهد باجتماعه عليه، يريد ذلك تأليفه، وإذا أمر بخدمة أحد خدمه وقبّل يده، ولو كان أنفس قدرًا منه، فيما يزعم، وإذا منعه شيخه شيئا من المباح امتثله، لأن الشيخ إنما قصده للمريد الترقي، والمباح لا يترقى فيه، ولا ثوابًا ولا عقابًا والمباحات ليس فيها سبيل للمريدين جملة واحدة بخلاف الأشياخ، لأنهم في مرتبة ورثة الشارع، وقد كان ﷺ يأتي المباح توسعًا على أمته، وكذا المشايخ يأتون ذلك توسعة على مريدهم، لو وقعوا فيه، وذلك لأن فعل المباح تنفيس للنفوس من مشقة التكاليف، والمريد الصادق لا يمل من العبادة إلا نادرًا نحو كل شهر مرة بخلاف المريد الكاذب، فإنه غالب أوقاته في المباح.

واعلم أن كل مريد متى احتج على شيخه بأقاويل العلماء، أو اعتل عليه بكتاب أو سنة فى جواز فعل المباح، أو غيره، لم يفلح أبدًا، كما إذا رآه شيخه يجمع دراهم لنائبات الدهر مثلا، فنهاه عن ذلك، فقال: الشارع جوَّز ذلك، فهذا فى طريق وشيخه فى طريق، وإن الشيخ أعلم بالمريد من نفسه، كالبيطار فى أمور الدواب أعرف بأمراضها من أصحابها، ونفس المريد الضعيف لا تميل إلا للرخص، فتنفر ضرورة ممن يأمرها بما يشق عليها، ومن الدسايس التى تدخل على المريد أن يطلب من شيخه دليلاً على قوله، فإن فعل ذلك فقدْ نقض عهده الذى بايعه عليه وهو العمل بكل ما قاله ببادئ الرأى، فإذا بيِّن له الدليل فالمراد إنما عمل بالدليل لا بقول شيخه، ومن هنا طلب الغزالى من يسلكه، ولم يكتف بمعرفته، فالذى ينبغى للشيخ إذا رأى نفس المريد قويت عليه فى الاستدلال والمجادلة معه أن يطرده، لكن بحسن عبارة، كأن يقول له: يا أخى قد صرت بحمد الله من أهل الطريق وأهل العلم، فاستفد على من هو أعلم منى أنفع لك، لأن الشيخ إذا ترك مثل هذا مقيمًا عنده أفسد عليه بقية أصحابه، فإن كان به خير رجع وتاب واستغفر، وإلا فقد استراح الفقراء منه.

ومن آدابه إذا أراد حضوره مع الشيخ أن يلبس أحسن ثيابه، لأن حضرة الشيخ ملحقة بحضرة الله، وينبغى قبل أن يحضر عنده أن يتوب من كل ذنب جناه، قديمًا أو حديدًا، ليدخل حضرة شيخه على طهارة كاملة، وإذا كان محله بعيدًا عن الشيخ لا يجتمع عليه إلا بنية الزيارة دون غيرها.

وبالجملة فأقل ما يلزم المريد من الأدب مع شيخه أعظم ما يلزمك مع ملوك الدنيا، فمن لم يعرف الأدب مع ملوك الدنيا لم يعرف الأدب مع الشيخ فالمشايخ باب المريد.

ومن آدابه ومن أهم الأمور، أن لا يزور أحدًا من المشايخ الأحياء والأموات إلا بإذن شيخه، ولو كان ذلك الشيخ صديقًا لشيخه، وكذا لا يزور أحدًا من المشايخ من جماعة غير شيخه، ولا يزيده على قوله: السلام عليكم، وذلك لأن المريد ضيق لا يسع طريق غير شيخه، ومن شأن كل ضعيف من المريدين أن يمدح شيخه وطريقته فقط، وينقض غير طريق شيخه أو يسكت عنها، وربما يكلمون بعضهم بعضًا فى الطريق فيتجادلون فيقع بينهم الضغائن.

واعلم أن منعهم من الزيارة واجب على الشيخ، ما داموا لم يبلغوا درجة الكمال من الرجال، فإذا علم من المريد أنه بلغ الغاية فى الترقى وأشرف على الأم التى تفرعت منها كل طريق، ورأى الطرق كلها تدور وتجمع فى بحر واحد، فهناك له الزيارة للناس.

قال سيدى محيى الدين بن العربى: كم فسدت الزيارة ناسًا، وذلك لأن الشيخ إنما يأتى مريده من الباب الذى يخالف هوى نفسه، فربما زار بعض المريدين غير شيخه فوجده قد أمر تلميذه بما نهاه عنه شيخه هو، فتميل نفسه إلى ذلك الشيخ فيسقط الشيخ الأول الذى هو شيخه من قلبه، وإذا سقط من قلبه وصحبه بعد ذلك ولو نَفَسًا واحدًا فقد نافق ونقض العهد مع الله، عز وجل، من أنه لا يميل لأحد غير شيخه، وإياك ثم إياك أن تظن أن شيخك إنما نهاك عن زيارة غيره حبًا للرياسة والحسد لأقرانه بكثرة المريدين، كما تظن بذلك ضعفاء المريدين، ومن لا علم له بالطريق، فإن ذلك من سوء الظن، وهو نقض للعهد الذى بينك وبينه، ولا تحمل حالك على حاله فتحكمك بالمساواة فتخرج إلى حد الخيانة والقطيعة، فلو كان حال شيخك مثل حالك ما كان شيخك، فافهم.

واعكف على شيخك وحده، وعلى جماعته، وإن طردوك، فلازم الباب، فإن طردوك عنه فأبعد يسيرًا ولا تفارقه، فإنك لا تفلح على يد أحد غيره أبدًا، كما

جرب، وإذا طردك وأراد الله بك خيرًا جمعك على من يحب شيخك لحبه لك، ويشوقك ويقوى عزمك على الرجوع إليه.

وينبغى للمريد إذا سقط حرمة أستاذه أن يخبره بذلك ليداويه من هذا المرض العظيم، إما بطرده عن صحبته وإما باستعمال ما يزيل عنه الحجب التى طرأت عليه بواسطة وقوعه فى معصية أو نحوها، وإذا طردوه فليكن ذلك بالقلب دون اللفظ إلا بسياسة تامة، فإن المنكر على الشيخ من أكبر الأعداء، وليس للشيخ أن يتحمله خوفًا من إفساد الفقراء، وأكثر ما يقع هذا المرض فى قلوب الذين يكثرون من مجالسة الشيخ، ولذا قالوا: لا بد للشيخ من ثلاثة مجالس: مجلس للعامة، ومجلس للخاصة، ومجلس يعاتب فيه كل مريد على انفراده، ثم لا يجالس كل نوع إلا غبًّا، يومًا بعد يوم، أو بعد أيام، مصلحة للمريد، لا تكبرًا وقيامًا للناموس الطبيعى وشروطه فى العامة أن لا يترك أحدًا من المريدين يحضر معهم فيه، ومتى سامحهم فى الحضور فقد غشهم، ويكون مجلس العامة فى ذكر ما يعينهم على الصلاة والصوم والصدقة، وبيان ثمرة ذلك، ولا يخرج بهم إلى ذكر شىء من الأحوال والكرامات وما كان عليه الأكابر لأنهم لا يقدرون على المشى عليه، وشروطه فى مجلس الخاصة أن لا يخرج عن نتائج الأذكار، والخلوات والرياضة وبيان الطريق الموصل إلى الله.

وشروطه فى مجلس الانفراد مع الواحد من أصحابه، زجره وتقريعه وتوبيخه وتصغير أعماله الصالحة فى عينه، ويقول: حالك ناقص عن مقام الصادقين، وينهاه عن دناءة همته.

ومن آدابه أن يحذر من العجلة فلا يبادر لفعل مأمور به، حتى يكون يعلم شرط صحة ذلك الأمر، كما أنه لا يدخل الصلاة إلا بعد معرفة شروطها ومعرفة كيفية أفعالها، فلا تكن المبادرة إلا بعد معرفة أركان ذلك الأمر وشروطه، قالوا: وإذا أرسله شيخه فى حاجته وكان مكانًا بعيدًا فمن الأدب لا يطلب له شيئًا

يركبه إلا إذا كان عاجزًا عن المشى عادة، وكذا لا يطلب للحاجة محملا إلا أن عجز عن حملها، فإن أقل المراتب للأدب مع الشيخ أن يكون الحكم معه فى تلك الحاجة، نفسه وزوجته وأولاده إذا بكوا عليه وطلبوها منه، فإن مراعاة خاطر شيخه مقدم على مراعاة زوجته وأولاده، فقد كان سيدى محمد الشناوى يرسله شيخه إلى طندتا للحاجة ماشيا يذهب يأتيه بها، وبعضهم يرسله بقفص الفراخ على رأسه ماشيا إلى مصر.

فرضى الله عن أهل المروءات، فإقامته وخدمته شيخه ساعة أفضل من خمسين حجة على الجهل بآداب الحج وشروطه.

ومن آدابه أن لا يكلف شيخه قط المشى ليسلم عليه إذا قدم من سفره، أو ليعوده إذا مرض، أو ليعزيه فى موت أحد، بل يذهب هو إلى شيخه فيسلم عليه ويعزيه، ومتى تغير قلبه من شيخه إذا لم يأته فقد أساء الأدب معه، فيجب عليه تجديد العهد، وينبغى أن يكون معه بالأذن باطنا كما هو معه ظاهرًا، ولا يتكلم فى حق شيخه كلمة من ورائه يستحى أن يقولها فى وجهه، فإن ذلك أكبر خيانة يقع فيها المريد، كأن يقول: هل كان شيخى يقع فى المعاصى قبل دخوله فى الطريق؟ أو كان يجامع زوجته فى كل ليلة؟ فذاك من فضول الكلام، ويلزم أن يعتقد أن كل ذرة من أعمال شيخه أفضل من عبادته ألف سنة، قال أبو سعيد الجزار: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين.

ومن آدابه إذا جلس مع شيخه أن يلزم السكوت، ولا يتلفظ بحضرته، إلا إذا وجد أمارة على إذن الشيخ له فى الكلام.

وآداب المريد كثيرة، وفى هذا القدر كفاية، ومن عمل بالقليل جره ذلك إلى العمل الكثير.

البـــاب السادس

فى آداب المريد مع إخوانه

اعلم أن المريد لا يجب عليه التخلق بجميع آدابه مع إخوانه، لأنه مشغول بحق الله عن حقوقهم، فلا يقدر على الجمع بين حق الله وحق عباده، وإنما يؤمر ببعض أخلاق منها فى طريق الخلطة والمجاورة، فما هو فى طريق العشرة، ثم إذا انتهى سيره وبلغ مبلغ الرجال فهنا لا يطالب بالتخلق بأخلاق الكمل كلها، وإيضاح ذلك أن الأخلاق المحمدية لا تخلع على أحد إلا إذا دخل حضرة الله تعالى الخاصة التى يدخلها السالك عند كمال سلوكه فى العادة، وتلك الحضرة يحرم دخولها على من بقيت فيه بقية من روعات النفس، بدليل عدم صحة الوضوء لمن ترك لمعة من أعضاء الطهارة لم يصبها ماء، ثم إذا استقر فى تلك الحضرة خلع عليه من الأخلاق المحمدية ما قسم له فيرجع متخلقًا بها من غير كلفة عليه فى ذلك، وأمر أن يعطى كل ذى حق حقه على الكمال، من والد وزوجة وولد وصاحب وجار، ونحوهم، ولو أمر فى بدايته بذلك لما قدر على السير فى الطريق لضعفه على الجمع بين حق الله وحق عباده.

وإذا علمت ذلك فمن آداب المريد مع إخوانه أن يكون محبا لهم جميعًا، كبيرهم وصغيرهم، ويكون ذلك لله تعالى وأن لا ينظر لهم إلى عورة ظهرت، ولا إلى زلة سبقت إذ هو لا يؤمن من الوقوع فى مثلها فإذا وقع فى مثلها يجب من إخوانه أن يرحموه ويعتذروا عنه ويقولوا بأن إبليس هو الذى أوقعه بإرادة الله، وإنه أوقع من هو أعظم منه، فلذلك ينبغى له أن يعاملهم بعدم الازدراء وإقامة العذر، وقد أجمعوا أن كل فقير اطلع على شىء من عيوب الناس، ولو من طريق الكشف، فهو فى حضرة الشيطان لا فى حضرة الرحمن، ولا فى حضرة ملائكته، وكل كشف اطلع صاحبه على شىء من عيوب الناس فهو كشف شيطانى يجب

عليك التوبة منه، فالواجب عليه أن لا يتعدى النظر إلى عورة نفسه لسترها، وأما عورة غيره فإن قدر على سَتْرِها سَتَرَها، وإلا غض عنها، فلا يطلع على عورات المسلمين إلا الشياطين، فمن تعرض للوقوع فى ذلك فقد تعرض فى حق شيخه. فإن شيخه ربما كان له صبوة قبل دخوله فى الطريق، كما هو الغالب عن أكابر الطريق، فقد كان الفضيلى من أكبر قطاع الطريق، وكان الشبلى وليا بالبصرة، وفى الحديث: «من تتبع عورات أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فقد فضحه ولو كان فى جوف رحله» فمن لم يستر إخوانه فى جميع ما يراه من عوراتهم، فإذا بلغه شيء عنهم كذب الناقل، وإن أبى التكذيب فيعمل المنقول عنه فتقام عليه حدود الله ثم يخرجوه من الفقراء لئلا يفعل غيره ذلك، والواجب على كلٍّ أن يفر من مواطن التهم، فمن سلك فى مسالك التهم فلا يلومن من أساء الظن به، فيجب عليه أن يفر من الأمرد الشاب، والنساء، ما أمكن.

ومنها: أن لا يعود نفسه التخصيص بما فتح الله به عليه بالحلال، ولو كانت خيارة، فإن من آثر نفسه على إخوانه فى الشهوات لم يفلح أبدًا، وما صاروا الناس رءوسا فى الطريق لا لكرمهم وإيثارهم وسلامة صدورهم من الحقد والحسد والضغائن، وإن المريد متى أخر نصفًا واحدًا على اسم حوائجه المستقبلة، مع حاجة أحد من إخوانه إليه خرج من وظيفة الفقراء.

والكلام فى الحلال، أما ما فيه شبهة فلا يمسكه بحال، ومتى ترخص فى الادخار تربى عنده الحرص والبخل، فيحتاج بعد ذلك إلى علاج شديد، ومن شك فليجرب، وما اتخذ الله من ولى بخيل.

ومن آدابه أن يكون عنده شفقة على دين إخوانه ويحب لهم من الخير مثل ما يحب لنفسه فينبههم على الوضوء قبل الوقت ليدخل وقت الصلاة وهم على أهبة،

فلا تفوقم تكبيرة الإحرام مع الإمام، أو بفوت السنة الراتبة قبل الفريضة، كما عليه الموسوسون ويقولون: الوقت متسع، وكثير ما تفوت أحدهم صلاة الجماعة كلها، وكان السلف إذا فاتته صلاة الجماعة يعيدها سبعا وعشرين مرة، مجاهدًا لنفسه، وإن كان جمهور العلماء على المنع من ذلك، ومن السلف الإمام المزنى صاحب الشافعى كان يعيدها خمسًا وعشرين مرة إذا فاتته الجماعة، وأن ينبه إخوانه فى الأسحار ويكون ذلك برفق، ويرى أن نومهم خيرًا من عبادته هو، لئلا يغتر بحاله، فمن رأى نفسه مساويا لجليسه فمدده واقف لا يجرى عليه، أو أعلى من جليسه فلا يصعد إليه ذرة من مدده، فلا يغتر بحاله ولا يطلب الرياسة قبل حينها فيتأخر إلى وراء، لأن كل جليس إذا رأى نفسه خيرًا من أصحابه فقد نسق فى طريق القوم ولُعن كما لُعن إبليس بسبب قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[1] وقال بعضهم: لا يصير الفقير فقيرًا حتى يصير نفسه دون كل جليس من المسلمين، فإذا صار كذلك صار الوجود كله يمده، كما أن الذى يرى نفسه خيرًا من جليسه المسلم يصير كل الوجود يلعنه، ومن وصية أحمد الرفاعى لأصحابه وهو مستحضر من تمشيخ عليكم فتلمذوا له، فإن مد لكم يده لتقبلوها فقبلوا رجليه، وكونوا آخر شعرة من الذنب، ولا تكونوا رءوسا، فإن أول ضربة تقع فى الرأس، وقال له يعقوب الخادم: يا سيدى أوصنى، فقال له: كن خادمًا لإخوانك مؤثرًا على نفسك متحملا أذاهم بعد ذلك، واحذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع فى حفرة لا يساعدك منهم أحد، ثم قال يعقوب: انظر إلى النخلة لما قامت بصددها وتعالت على جيرانها جعل الله حملها فوق رأسها، ولو حملت مهما حملت لم يساعدها أحد، وانظر إلى

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٢.

شجرة اليقطين لما وضعت خدها فى التراب وتواضعت جعل الله حملها على غيرها، ولو حملت مهما حملت لا تحس بثقله، قال ﷺ: «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه» وقد أمرك الله ورسوله بالتواضع لعباده، فليكن تواضعك امتثالا لأمره.

فتأمل يا أخى واعتبر، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب.

ومنها أن لا يزاحم على إمامة، لما فى ذلك من تحمل سهو المأمومين مع ضعف باله، بل هيهات أن يقدر على تحمل سهو نفسه وغفلته عن ربه وأيضًا فربما جره ذلك إلى حب الرياسة ولا يتكدر إذا نزل.

ومن آدابه أن لا يكون مقدمًا لإخوانه فى سوء الأدب مع الشيخ، أو يطلب الدنيا بالوظائف والحرف، أو يتزوج بغير إذنه، أو يصير يوسع على نفسه ويأكل الشهوات ويمنع إخوانه من ذلك، حتى لو قال له الشيخ: أنفق على إخوانك نصفًا واحدًا لا يجيب، وذلك إساءة أدب مع الشيخ ومع إخوانه، لأن جميع الفقراء تصير تحتج بفعله.

ومنها: أن يكون رأس ماله مسامحة إخوانه فى كل شيء آذوه به، من فعل أو قول أو سوء ظن، وأن يعتذر لإخوانه إذا خدمهم أن لا يقوم بواجب حقهم، وأن يرى خدمتهم هى الشرف، ويعامل إخوانه بالكرم والإيثار بحقوقه، ولا يكون له التفات إلى الدنيا وزخارفها والإقامة فيها، ولا إلى مطالبة ناظر ولا جابى بعلوم وظيفة إلا إذا كان مضطرًا.

ومنها: أن لا يصدق فى إخوانه تمامًا، وإن نقل إليه إخوانه يكرهونه ويقولون: فيه كذا وكذا، ويقول له: يا فلان أنا من محبة إخوانى على يقين، وكلامك هذا ظن، وأنا لا أترك اليقين بالظن.

ومنها: أن لا يكون مقدمًا على إخوانه فى التكاسل عن حضور مجلس الذكر بالكلية والحضور فى أول المجلس أو عن الحضور لصلاة الجماعة، أو مجلس العلم والأدب، فمن كان مقدمًا لإخوانه فى ذلك فقد أساء الأدب معهم، وكان عليه وزر كل من يتبعه، وينبغى إذا تخلف عن المجلس بعذر وجاء فى أثنائه ولو فى الدعاء، يحضر مع إخوانه فيه ولا يستحى أبدًا، كالحكم فيمن أتى الجماعة فى التشهد الأخير يستحب له الإحرام ليحصل له جزء من فضل الجماعة، وإذا وبخه أحد إخوانه على التخلف لا يقيم الحجج على إخوانه بل ينبغى المبادرة والاستغفار، وقوله: جزاكم الله عنى خيرًا، وهذا دليل على شدة محبتكم لى.

ومنها: أن لا يكون مقدمًا لإخوانه فى الخروج من مجلس الذكر قبل الفراغ منه، لا سيما إذا احتبك المجلس من شدة الذكر، فإن ذلك يضعف قلوب الذاكرين، وليستعد للذكر بخفة الأكل والشرب، حتى لا يحتاج إلى تجديد طهارة عن الحدث من حين يجلس إلى حين يفرغ، لا سيما مجلس الذكر بعد صلاة الجمعة إلى العصر، فقد ورد: من صلى الجمعة وجلس يذكر الله تعالى إلى العصر كان فى عليين، وقد ورد أيضًا: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا» فالعاقل من تنبه لنفسه وأكرهها على الخير تتمرن ولا تمل إلا نادرًا، ويتأكد أن لا ينصرف إلى مجلس الذكر الذى فيه الشيخ، ولو كان الحاجة ضرورية إلا بعد استئذانه سيما مفارقة من علت رتبته من أصحاب الشيخ، فإنه يتعين المشاورة حزمًا، لئلا يقتدى به غيره فتضعف حلقة الذكر، لأن المجالس إنما جُعلت ليقوى بعض الناس بعضًا، فإذا كسل واحد وكان جاره نشيطًا تبعه فى الكسل، بخلاف ما إذا عظم المجلس جاءت له الفقراء وأحبوا حضوره واعتنوا به، ثم إذا استأذنوا الشيخ وذهبوا للضرورة ينبغى أن لا يقوموا دفعة واحدة، فيضعف قلب الباقين عن القيام، بل

يقوموا متراسلين واحدًا بعد واحد، ثم إذا فرغ أهل المجلس من الذكر وأرادوا الجلوس فليرجعوا إلى أماكنهم التى كانوا فيها، وينبغى أن يقرب على إخوانه طريق الوصول إلى مراتب الكمال، وذلك بالاشتغال بالذكر على الدوام، فإن الله جعل لكل مريد مناهل وعقبات لا يصل إلى مقامات الكمال إلا بقطعها كلها.

ومنها: أن يراعى مواطن غفلة إخوانه عن الذكر، فيذكر الله فى مواطن غفلتهم، لتنزل الرحمة على إخوانه، فيحسن إليهم بذلك، ويكتب له أجرًا عظيمًا، وربما كان ذكر الواحد فى وقت غفلة إخوانه فى الأجر والثواب بعدد من غفل منهم، والله يحب من عباده من يحب ذكره، وأن يرغب إخوانه فى ذكر الله مع الفقراء صباحًا ومساء، ولا يبقيهم يجلسون للغو والغفلة فيكون رحمة على إخوانه ويحب كثرة الإخوان فى الذكر، محبة فى الله عز وجل، ويتعين كثرة الحث على الحضور إن كان الورد طويلاً.

ومنها: أن يرشد إخوانه ويعلمهم الآداب الشرعية والعرفية من غير أن يرى نفسه عليهم بذلك. فقد يكون أحدهم أكثر خلاصًا منه لله وأحسن معاملة، فلا يلزم من كونه أعلم من المريدين أن يكون أفضل عند الله منهم، وهذا أمر يغفل عنه كثير من الناس.

ومنها: أن يكون مقدمًا لإخوانه فى كل عمل شاق من أعمال الدنيا والآخرة، كحمل الحطب وكسهر الليالى الكاملة، وكل من ادعى أنه أقدم هجرة عند الشيخ فهو أحق بذلك من الحادث القريب العهد، ويكون بعيدًا من مواطن التهم، فلا يأمر إخوانه بقيام الليل وهو ينام، ولا يزهدهم فى الدنيا وهو يجمعها، ولا يأمرهم بالصيام وهو يفطر، ونحو ذلك.

ومنها: أن يتظاهر بعداوة من عادى إخوانه بغير حق قيامًا بواجب حقوقهم ولا يجوز له عداوته باطنًا، إلا إن كان من أهل الكشف وكشف له عن شقاوته والعياذ بالله.

ومنها: أن يرشد إخوانه إلى ترك البغي عليهم، ولا يأمرهم قط بمقابلة الباغي بالبغي، وفى الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» وفى زبور داود: لا تبغى على من بغى عليك، إن أردت أن أبصرك، فمن بغى على من بغى عليه تخلفت على نصرتى له.

ومنها: أن لا يغفل عن خدمة من مرض من إخوانه، لا سيما فى الليل، حتى ينام الناس ويتركوه، وليس له أهل ولا أولاد ولا أصحاب، فإنه يتعين عليه خدمته، وقد ورد أن العبد يُسأل يوم القيامة عن حقوق جميع إخوانه وأصحابه، ثم إن كان الفقير المريض ليس معه شيء ينفقه فى المرض فينبغى لإخوانه أن ينفقوا عليه من مالهم، أو يقترضوا، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

ومنها: أن لا يدخل على إخوانه، ثم إذا أرسله الشيخ فى حاجة إلى شخص من الحكام أو غيرهم ممن لا يعتقد فى الشيخ، فإن سب الشيخ أو لم يقض حاجته فمن الأدب أن يقلب ذلك الكلام بسياسة، ولا يدخل على الشيخ والإخوان بذلك الكلام الجافى بل يكون حسن اللفظ، ولا يبلغ الشيخ إلا خيرًا، وإن كان هذا الشخص الذى يشفع فيه الشيخ لا يستحق شفاعة لقبح ذنبه، فيصبر الشيخ حتى يستوفى العقوبة منه، ثم إن لقى الرجل الذى سب الشيخ فيبلغه السلام من الشيخ ويغالطه، ولا يعاتبه على شيء مما كان وقع منه فى حق الشيخ، فإن ذلك مما يؤلف القلوب على الشيخ ويقلل أعداءه ويكثر الفقراء.

منها: أن لا ينسى إخوانه من الدعاء بالمغفرة والرحمة والعفو كلما وجد الوقت صافيا مع ربه، عز وجل، سواء كان ذلك ليلا أو نهارًا وسجودًا وغيره، ومن فوائد ذلك الوفاء بحقوقهم ولقول الملك الموكل بالدعاء: ولك مثل ذلك، ودعاء الملك لا يرد، وقال سيدى على الخواص: إذا وجد أحدكم الوقت رايقًا من الكدورات فليسأل الله المغفرة لجميع المسلمين من أهل عصره، وهذا من أعظم حقوق المسلمين، وفى الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] الآية، ويقاس من تأخر عنا بالإيمان، أو سألونا.

ثم إن طلب المغفرة لهم يكون على نوعين: إما أن الله يحول بينهم وبين الوقوع فيما لا ينبغى، وإما أن لا يؤاخذهم إذا عصوا، ويكون استغفار أحدهم إذا وقع فى حق صاحبه بكشف الرأس والوقوف فى صف القتال واضعًا يده اليمنى على اليسرى نادمًا على ما وقع منه فى حق أخيه أو غيره، فإن لم يقبل أخوه استغفاره لا يقعد بل يبقى قائمًا إلى أن يرحمه الله، ويجب على أخيه أن يرجع باللوم على نفسه حينئذ ويقول: أنا الظالم على أخى، حيث اعتذر لى ولم أقبل عذره، فافعل ذلك صفت القلوب.

ومنها: إكرام كل وارد عليه من إخوانه، ولا يأكل شيئًا وحده ما استطاع، ولا يذكر أخاه بسوء أيام غيظه، فإذا اصطلحا يصير ذلك يكدر صفاء المودة، وهذا من أقبح ما يكون بين الفقراء سيما إذا كانوا فى مكان واحد، وكل وقت يقع الوجه فى الوجه.

---

(١) سورة الحشر: آية ١٠.

ومنها: أن يقدم حوائج إخوانه الضرورية على عبادته من سائر النوافل، لأن الخير المتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله، ويؤنس أخاه المستوحش ويؤمنه إن كان خائفاً.

ومنها: أن يتخذ عنده الموسى .والمغفر والإبرة. والمخرز والخيط والزناد والكبريت والمشط والخلالة والسواك والسجادة من فوطة أو خرقة على كتفه لأجل الصلاة عليها حيث أدركته فى سفره وإقامته، وربما يكون عليه قميص واحد والأرض متنجسة فيقف والقصد نفع إخوانه بذلك بالصلاة عليها.

ومنها: المبادرة لتنظيف المستراح من القذر، وليكن ذلك الوقت لا يراه فيه أحد منهم، كالأسحار وفى أوقات الغفلات، ثم لا يحدث بما رأى من القذرات المائعة ونحو ذلك، إعانة لإخوانه، وإذا رأى المطهرة ناقصة كملها من البئر، فإن السنة للعبد أن يوالى ماء الطهارة نفسه، وأن يملأ أكثر من الذى يتطهر به، وأجره على الله.

البـــاب السابع

فى آداب المريد مع نفسه

منها: أن يكون ورعًا عن الحرام والشبهات فى مأكله ومشربه ومنطقه وسمعه وبصره ويده ورجله وقلبه وفرجه، وعمدة ذلك كله الورع فى اللقمة، لأن الأعمال تنشأ من جوارح العبد على صورة اللقمة فى الحل والحرمة، فلو أراد من يأكل الحلال أن يعصى تعسر عليه ذلك، قال إبراهيم بن أدهم: اطلب مطعمك حلالاً ولا عليك بعد ذلك أن لا تصوم فى النهار ولا تقوم فى الليل، يعنى نفلا، وليحذر المريد من الورع رياء وسمعة للناس، فإنه يزاد بذلك مقتًا وبعدًا.

ومنها: إذا تعسر رزقه وقسا عليه قلوب العباد فليصبر ولا يضجر، فكثيرًا ما تتحول الدنيا عن المريد عند دخوله الطريق، فربما قال: ما كان لى حاجة بالطريق فينقض عهده فلا يفلح أبدًا بعد ذلك، فإذا وقع له العسر فيها فليعلم أن الله يريد أن يواليه ويفتح عين بصيرته، وأن لا تجتمع محبة الله مع محبة الدنيا، فينبغى أن يرفضها وراء ظهره.

ومنها: إذا دخل الطريق وهو عزب لا يتزوج، أو متزوج لا يطلق، لأن طريق القوم ليست بالرهبانية، وأكل الشعير، إنما الطريق أن يحفظ المريد أوقاته عن الضياع فى اللهو والغفلة وعدم الملل من العبادة.

ومنها: أن يكون ناهض الهمة خفيفًا فى فعل الطهارة، فلا يزيد على الغسلات الثلاث، وأن يرفع همته عن طلب الأجر على أعماله وعبادته، وأن تكون أعماله على وفق الشريعة المطهرة، فإن الشريعة هى الحد القاطع والسيف اللازم لعصمتها.

ومنها: أن يقلل النوم ما أمكن، لا سيما وقت الأسحار فإنه وقت الإجابة والعطاء والتجليات، والنوم ليس فيه فائدة دنيوية ولا أخروية، وإنما هو خسران

لأنه أخو الموت، فلا ينام الثلث الأخير، وقال سيدى إبراهيم الدسوقي: كيف يدعي المريد الصدق في الحب للطريق وهو ينام وقت فتح الغنائم وفتح الخزائن، ووقت نشر العلوم وإظهار المكتوم.

ومنها: أن لا يشبع إذا أكل، ولا يأكل إلا إذا جاع، قال سيدى إبراهيم الدسوقي: قوت المريد الصادق الجوع، ومطره الدموع، ووطره الخشوع، يصوم حتى يرق قلبه ويلين، وأما من شبع ونام ولغا فى الكلام وترخص وقال: ما على فاعل ذلك ملام، لا يجيء منه شيء فى الطريق والسلام.

ومنها: أن لا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة ولا مكابرة ومماراة ولا ممالقة ولا مكاذبة ولا مصاقلة، ولا كبر ولا عجب ولا افتخار ولا حظوظ نفس ولا تصدر فى مجالس، ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين ولا جدال ولا امتحان ولا تنقيص لأحد من أهل الطريق، وتقدم بعض ذلك.

ومنها: أن يسد على نفسه باب مراعاة الخلق فلا يلتفت لأحد من المخلوقين، أقبل عليه أو أدبر عنه، لأن من شروط المريد الصادق أن يحب العزلة عن الناس، ولا يطلب له مقامًا ولا قيمة عند أحد منهم، كما له ولهم، فلا ينبغى له حضور المجلس الذى فيه اللغو، فعليك بالوحدة إلا فى حضور الجماعات ومجالس العلم السالمة من ذلك.

ومنها: أن يوبخ نفسه ويحثها على السير فى الطريق كلما وقفت مع حظوظها، ويقدم حذف العلائق على كل عمل، فإنهم قالوا: مثال من خزن عنده درهما مثال من ربط نفسه بحبل الفيل، ومثال من خزن دينارًا مثال من ربط نفسه بحبل البئر، ومن زاد فى الدنيا زاد من الحبال، وينبغي له كلما تعب من عبادة يقول لنفسه: اصبرى، فإن الراحة أمامك غدًا، وإنما أريد بتعبك راحتك فى الآخرة.

ومنها: أن يغض بصره عن الصور الحسناء المستحسنة ما أمكن، فإن النظر إليها كالسم القاتل والسهم الصائب فى قلبه فيقتله، لا سيما إذا نظر بشهوة، قال سيد الطائفة، أبو القاسم الجنيد: من أكبر القواطع على المريد مصاحبة الأحداث والنسوان والمعاشرة لهم، وقال الواسطي: إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف ـــ يريد الشباب المرد التى تميل النفوس المغوية إليهم ـــ وقال فتح الموصلى: قد صحبت ثلاثين شيخًا، كلهم أوصونى عند فراقى لهم أن أتقِ معاشرة الأحداث، فينبغى للمريد أن لا يجالس الأمرد الجميل قط، ولا يسكن وإياه فى خلوة واحدة، ما أمكنه، وقد صنف سيدى محمد الغمرى كتابًا سماه «العنوان فى تحريم معاشرة الشباب والنسوان» وحط فيه على المطاوعة أشد الحط، وكذلك الفقراء الذين يأخذون العهد على النسوان، ويصير أحدهم يختلى بهن فى غيبة أزواجهن، وتقول إحداهن له: يا أبى، ويقول لها: يا بنتى، فهذا خارج عن قواعد الشريعة المحمدية ومن خرج عن الشريعة ضل وهلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[1] وقد أجاز أهل طريقنا تلقينهن وأخذ العهد عليهن، لكن مع عدم المس وعدم الخلوة بهن.

ومنها: ما دام أمرد يجلس خلف الناس ولا يزاحم الرجال فى الجلوس إلى أن يلتحي، وقال بعضهم: لا ينبغى للمريد إذا كان جميل الوجه لا لحية له أن يجلس قط مع الرجال إلا فى حلقة الشيخ، ولا يكتحل بالكحل الأسود ولا يتطيب ولا يلبس الملابس الفاخرة، وإنما الأدب أن يلبس الملابس الخشنة.

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٣.

ومنها: أن يكابد خواطره ويعالج أخلاقه وينفى الغفلة عن قلبه بمداومة كثرة الذكر والفكر، وأما المريد فإنما عمله الدائم فى تنظيف ظاهره وباطنه من الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل، كالغضب وغم النفس والعجب والحسد والكبر ونحو ذلك، فإذا تطهر المريد من الصفات فهناك يصلح لتلاوة القرآن ومجالسة الحق، جل وعلا، فى الوقوف بين يديه فى الصلاة، هذا ما درج عليه السلف الصالح، وقال المرصفى: قد عجز الأشياخ فلم يجدوا أسرع لجلاء القلب من مداومة الذكر، كما مر.

ومنها: أن لا يستبطئ الفتح عليه بل يعبد الله لوجهه، سواء فتح عين قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا، فإن العبادة من شروط العبودية، وقال سيدى محيى الدين بن العربى: إياك أن تترك المجاهدة إذا لم تر أمارة الفتح بعدها، وهذا الأمر لازم لا بد منه، ولكن للفتح وقت لا يتعداه فلا تتهم ربك فإنه لا بد من أعمالك من الثمرة إن كنت مخلصًا لله فى عملك، وقال: احذر أيها المريد أن يكون قصدك من ذكرك وعبادتك الأجر والثواب، فإن ذلك حاصل لك لا محالة، وإنما ينبغى أن تكون همتك التلذذ بمناجاته تعالى، والفوز بمجالسته، فإن من عزم على مجالسة السلطان ينبغى أن لا يهتم بمأكله ولا بمشربه ولا بملبسه ما دام فى خدمته.

ومنها: أن لا يمد يده للطعام إلا عند الضرورة، ولو كان بين يده طعام كأمثال الجبال، وإذا أكل لا يأكل إلا بقدر سد الرمق، وقال بعضهم: فترة المريد بعد المجاهدة من فساد الابتداء، أو كل مريد صادق لا بد أن يترك الدنيا مرتين: **الأولى**: يترك مطامعها ونعيمها وجميع شهواتها، **الثانية**: أن يترك جاهها وتبجيل الناس له وقيمته عندهم لأجل تركها، لأنه إذا عرف الزهد فى الدنيا عظموه الناس حتى الملوك ضرورة، فيكون تركه لذلك أعظم من تركه الأول، لكن إذا أخذ

الدنيا بعد رميها بقصد الستر لنفسه ولعفته وغناه عن المسألة لا يكون إلا لمن لا اتباع له مقتدين به، أما من له اتباع مقتدين به فربما يتبعونه فيهلكون بزخارفها وسحرها وارتفاع قيمتهم فيها.

ومنها: أن يأخذ بالأحوط فى دينه ويخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن، طالبًا وقوع عبادته صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها، فأرخص الشريعة إنما جعلت للضعفاء وأصحاب الضرورات والاشتغال، وأما القوم فليس لهم شغل إلا مؤاخذة نفوسهم بالعزائم، ولذا قالوا: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد فسخ عهده مع الله ونقضه.

ومنها: أن يخفى فى أعماله وأحواله التى تكون بينه وبين الله ما أمكن حتى ترسخ فى مقامات مراعاة الله وحده دون غيره من خلق الله، فلا يكاد أحد يأخذ من الفقير الصادق مقامًا ولا يعرف له حالا من شدة كتمانه، وقد أجمع أهل الطريق على أنه إذا لم يكن المريد غير ملاحظ للخلق فى أعماله لا يجىء منه شىء فى الطريق، وقد أجمعوا أيضًا أن كل مريد أحب الظهور وأن يطلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به، لا سيما إذا صار الناس يتبركون به فإنه يهلك بالكلية.

البـــــاب الثامن

فى الأمور التى يستحق بها المريد الطرد من شيخه

منها: إذا شكى الفقراء منه سوء الخلق أو الكبر عليهم، ونهاه شيخه عن ذلك فلم ينته، أو أمره بأمر فلم يأتمر وامتنع، وتكرر ذلك منه مرارًا، أو كان ممن يراجع الشيخ فى الأمور التى يفعلها مظهرا بذلك كمال عقله وحسن رأيه على شيخه، أو يعتزل مجلس ذكر الشيخ أو مجلس وعظه لغير ضرورة، أو يحضر لكن يشتغل فى مجالسهم بغير ما هم فيه، أو لم يحضر صلاة الجماعة لغير ضرورة، أو يتهاون بالصلاة، أو يلقى على شيخه المسائل العلمية مظهرا عليه العلم ومثبتًا لنفسه الفضل، أو يفعل مثل ذلك مع إخوانه من الفقراء على طريق الازدراء بهم، أو كان اللهو والضحك بحضرة الشيخ، أو كان غير محترم له، أو يستفتح عليه فى المجلس بغير إذنه، بحضوره أو فى غيبته، ولم يأذن له، أو يتكاسل بالعبادة اللازمة كأداء الفرائض، أو يمدح أحدًا من مشايخ العصر عند بقية المريدين، أو يستحسن طريقًا غير طريق شيخه، أو يستعمل وردًا غير ما أعطاه له الشيخ بعد انتهائه، أو يكثر الجلوس فى موضع التهم، أو يستمع الملاهى قبل كماله، أو يتجسس على شيخه وهو فى خلوته، أو عند عياله، أو يستكشف حقيقة حاله بالبحث والسؤال عنه من الغير بعد الأخذ عنه، أو يأكل كثيرًا والشيخ يربى بالجوع، أو كان كثير المخالطة والشيخ يربى بالعزلة، أو منهمكا على جمع الدنيا لغير حاجة، ونحو ذلك، ويتجه هنا صلاح باقى الفقراء الذين عنده، فإن الواحد قد يفسد المالة.

الباب التاسع

فى النقابة والنقباء وما يتعلق بذلك

الأصل فيها القيام بالحفظ والإحاطة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] ولقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2]، وفى الخبر: «احرص على ما ينفعك...» الحديث، ومن المعلوم أن لكل نبى أنصارًا، ولكل جماعة أعيانًا، ولكل بيت رءوسًا، ولكل ركب أدلاء، ولما كانت الأولياء على سنن الشرع والخلافة عزيزة والقيام بأمرها مشق على المريدين الأعلى أهل الخصوصية احتاج الأمر إلى إقامة أشخاص لتعاطى خدمة الفقراء لنظام شملهم معاونين للشيخ، وهم النقباء، ويكفى منهم أربعة أشخاص، وبهم يتم النظام فأدناهم منزلة نقيب النعال، وهو أعلاهم معنًى، وأقربهم فتحًا وسلوكًا إذا قام بأدائها ووفى حقوقها وآدابها، ثم ساقى الماء، له بكل قطرة أجر، ثم نقيب السماط له بكل لقمة يأكلها إخوانه أجر، ثم نقيب الحضرة، وهو نقيب النقباء وعين الجماعة، وإليه الإشارة، وهو محل سر الشيخ وبابه، وله وظيفة الدعاء، وتقديم المريد للعهد والاستئذان وترتيب المجلس وافتتاحه إذا غاب الشيخ، والوقوف على رأس الفقراء، ولكل واحد من الأربعة آداب.

أما آداب نقيب النعال فكثيرة: منها، وهو أجلها: الإخلاص فى ذلك لوجه الله، وأن يلزم الخضوع ليستكمل رتبته، وينوى بهذه الخدمة الوقاية من المكروهات، وإن قدم عليه فقير بش فى وجهه ويتلقاه بالبشر والترحيب والسعة، كقوله: مرحبا بأخينا فلان، أو سيدى فلان، أو الشيخ فلان، شكر الله سعيكم وتقبل منكم، وأعاننى على القيام بواجب حقكم، ويأخذ نعله وينفضه ويطويه،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٥.
(٢) سورة النساء: آية ١٠٢.

ويعرف رتبة الفقراء ليضع نعال كل واحد مع رتبته، وعليه الحفظ والصون والوقاية للنعال، وإذا أراد حاجة خلف من يحرس، وإذا أراد الانصراف وأقبل عليه واحد منهم قدم له نعله ودعا له بالقبول، وسأله الدعاء، وينبغى أن يكون حاذقًا فطنا ليميز النعال، ويعرف صاحب كل نعل، وإذا أراد الكمال أخذ نحو سكين يحك بها ما عساه يكون داخل النعل من وحل، وخرقة يمسح بها، وينبغى أن يكون له خرج أو نحوه إذا كانوا فى محل غير الزاوية، كزيارة أو اجتماع عند أحد ليحفظ نعالهم، وعليه حمله على رقبته إن كان وقت مشي، ويضعه بين يديه حال جلوسه، ورتبته خلف القوم إذا مشوا، وذلك ليحفظ ما عساه أن يقع منهم من ثوب ونحوه.

ومن آدابه: أكل فضلة القوم.

وأما آداب ساقى الماء فكثيرة منها: تنظيف الكيزان وتطييبها بالروايح الزكية وتنظيف يده وثيابه، ولا يمخط بحضورهم، ولا يبصق ولا يتخطى رقابهم ولا يمنع الماء من أحد، جليل أو حقير، ولو من غير الفقراء، وأول مروره بالماء أن يبتدئ بمن على يمين الشيخ ويختم بمن على يساره، وينبغى أن يكون عارفًا بآداب الشرب ليرشد الشارب، ومن آداب الشرب أن يأخذ الكوز بيمينه وأن يشرب قاعدًا ويتناول الماء بثلاث جرعات، يتنفس عقب كل جرعة خارج الإناء، ويبتدئ فى أول كل جرعة بالبسملة ويأتى عقبها بالحمدلة، ويسن بعد الشرب الحمد لله الذى أطعم وسقا وسوغه وجعل له مخرجًا، فيقول: هنيئا لك يا أخى، جعله الله لك صحة وعافية، ونحو ذلك مما فيه تطييب لخاطره، وإدخال السرور عليه، ويمر على الفقراء بالماء فى موضعين: قبل افتتاح المجلس وعقب الأكل، بعد أن تقرأ الفاتحة، ويستأذن قبل أن يدخل الحلقة تعظيمًا لها، فإذا كانوا حال الأكل وقف

على رءوسهم أو قريبًا منهم بالماء، ووضعه بينهم، وهو أولى، ربما يغص بلقمة أحدهم، وإذا كان الذكر قائمًا ودخل فقير عرض عليه الماء، ولا يسقى أحدًا حال الذكر ولا عقبه، إذا كانوا فى زيارة أو أرادوا الذهاب إلى محل غير محله معهم الماء.

ومن آدابه: التقييد بأباريق الاستنجاء والوضوء لمن أراد ذلك، وغسل الأيدى قبل الطعام وبعده، وغسل ثياب الفقراء، ولا ينهر أحدًا ولا يعبس فى وجهه.

وأما آداب نقيب السماط فكثيرة، فمنها: أن يكون فطنا حاذقا متحركا نشيطًا نظيفًا ورعا زاهدًا حسن الأخلاق، طيب الأوانى، يجيد الطعام ويحسنه بما يليق به، فإذا أراد الأكل قرأ الفاتحة واستأذن وسأل الله تعالى فى سره الستر وإنزال البركة فى الطعام، وأن يجعله صحة وعافية وقوة على طاعة الله، ثم يفرش السماط قاصدًا بذلك تعظيم النعمة، ويرص الأوانى متوالية على نمط واحد وهيئة واحدة، ولا بأس أن يكون معه معين، وكونه ساقى الماء أولى، لأن المرتبة قريبة، ويفعل ذلك كله وهو يقرأ سورة الإخلاص لأنها تطرد الشياطين وتحصل البركة فى الطعام إن شاء الله، وإذا تم وضع المأكول قام على رءوسهم، وينبغى أن يقرأ سورة قريش فى سره مرات قاصدًا بذلك إذهاب ضرر المأكول عنهم، وإذا رأى متأخرًا قدّمه أو محصورًا فسح له، أو فرغ الطعام من ناحية أبدل لهم غيره، إن كان، فإذا تم أكلهم ورفعت الأوانى وفيها بعض طعام لعق منه بحضرتهم، يريد بذلك التبرك بهم وإظهار الشرف بخدمتهم، وجمع ما يفضل لنقيب النعال وأكل معه، ثم إذا أراد طى السماط قال: أخلف الله على باذليه وهنأ آكلية وجعل البركة فيه، اللهم يا سابغ النعم ويا دافع النقم، يا من يُطعِم ولا يُطعَم اجعل طعامنا هذا قوة وبلاغًا وصحة وعافية وشفاء ونورًا وصفاء، ونجنا من تبعته فى الدنيا والآخرة، واجعله من رزقك

الذى ترزقه من تشاء بغير حساب، يا أرحم الراحمين، آمين والحمد لله رب العالمين.

ومن آدابه: أن يفضل عنده بقية إذا توقع حضور أحد ليقدمه إليه فى محل وحده، وأن يأكل معه تطييبًا لخاطره فإن لم يكن عنده إلا طعام نفسه خصه به وآثره على نفسه.

ومن آدابه أن لا يأكل من الطعام قبل وضعه إلا بقصد ذوقه، ولا يختص بشىء دونهم، ولا يؤثر أحدًا بشىء، فإن فعل ذلك فقد خان واستحق العزل، وإذا أعطاه أحد شيئًا يرسم الطعام من ورائهم فلا يدخره لنفسه، بل إذا لم يحتج هو إليه فى الحال للفقراء تركه لهم لوقت الحاجة، وعليه السعى لمن لهم عليه عادة يبذلها لهم فى كل جمعة أو شهر عن طيب نفس، وعلامة ذلك أنه لو لم يسع إليه لجاء هو بها إليه، ولا يخفى عن الشيخ شيئًا جاءه، بل يأتى به ويضعه بين يديه ويقول له: يا سيدى هذا من سيدى فلان، أو أخينا فلان، فإن أخذه الشيخ فقد خرج من عهدته، وإن أمره بأخذه وحفظه فعل ذلك، وإن رسم له بالتصريف لأحد دفعه له، وإن وضعه بين يديه وأخبره به فسكت ولم يرد جوابًا تركه وقام، ومن سوء الأدب أن يظن بشيخه سوءًا إذا أخذ شيئًا ولم يخرجه للفقراء، فإنه أعرف بالمصلحة منه، فقد يمكن أن يكون يبذله لمن هو أحوج إليه منهم، وصاحبه فى الحقيقة إنما قصد به أداء الحاجة، ولو علم غناهم عنه ما بذل له حيث كان من المخلصين فى بذله، أما شخص يبذل شيئًا ليوضع بين هؤلاء الجماعة بخصوصهم قصد السمعة، فمثل هذا لا يقبل منه بحال لأنه أعانه على معصية.

ومن آدابه أن يكون عارفًا بآداب الأكل ليرشد غير العارف بها برفق.

ومن آدابه ــ أى الأكل ــ الجلوس على الركبتين، أو يقيم رجله اليمنى، ويصغر اللقمة ويطيل المضغة ولا يصق ولا يمخط بحال حال الأكل، ولا يفعل ما تستقذره النفوس، كوضع اللقمة فى فيه ثم يخرجها ويضعها فى الطعام بعد ذلك، ويسمى المهندس، ولا يرشرش ولا يجنح ولا يضع اللحم على الخبز ولا الجبن على الرغيف ولا يكسره بموضعه، ولا يسند الإناء برغيف، ويأكل مما يليه، ولا يمد يده للطعام قبل الإذن ولا يحمل شيئًا معه ولا يرمى بالنوى، ولا بقشور البطيخ، بل يجمع ذلك بين يديه، وإذا عرض له سعال أو عطاس حوَّل وجهه وفعل ذلك، ويأكل بثلاثة أصابع، فيما يأتى له فى ذلك، ويبدأ بالملح إن كان، ويختم به، ويتناول اللحم أولا ولا يقطعه بالسكين، إلا أن يكون عديم الأسنان، ولا يرده إذا قدم إليه، كالوسادة واللبن والحلو والطيب والريحان فإنه يسن قبول ذلك، ولا يمسح بيده الخبز، ولا ينبغى كثرة الأكل وهو ما فوق الشبع حرام، وفوق الثلث مكروه، ويتباعد عن شرب الماء ما أمكن إلا لإصاغة لقمة، ولا يطأطئ رأسه على الإناء حال الأكل، والحديث بحديث الصالحين حال الأكل مندوب إليه، ولا ينبغى القسم إلا لمتحشم.

وأما نقيب الحضرة الذى هو باب الشيخ وقيم الخلافة فآدابه كثيرة.

منها: أن يكون من أهل العلم، وأن يكون حليما ورعا زاهدا كاملا على أحسن الهيئات وأجمل الأحوال عارفًا بالطريق مستحضرًا لأدب المريدين وآدابهم مع الشيخ، وآدابهم فى مجلس الذكر، ينزل الناس منازلهم متصدرًا لتعلم الأدب باللطف، محسنًا إليهم، بشوشًا صامتًا، لا يمزح ولا يعبث ولا يكثر النظر، ولا الالتفات لغير ضرورة.

ومنها: الوقوف بوظائف القيام على رءوس الفقراء، ويفعل ما يراه مصلحة مما جرت به العادة وإذا خفي عليه أمر يستشار الشيخ بالأدب والجلوس بين يديه بخفض الصوت وغض البصر، وإذا رأى مريدًا يكلم الشيخ فى شيء قال له: إذا أردت شيئًا قل لى، هذا إذا كان مما يتعلق بأمور العادات والمسائل العلميات، أو الآداب التى يحتاج إليها الحال، أما نحو واقعة أو رؤية أو وارد فلا يقوله المريد إلا لشيخه، لكن لا فى محل احتماعهم بل فى وقت لائق لخلوة الشيخ، أو انفرادهما، إلا أن يقول له الشيخ: هات ما عندك، فإنه يقول، ولو بحضرة الناس، وقد يكون قصد الشيخ بذلك توبيخه أو توبيخ غيره، أو تنشيط بعض الحاضرين أو غيره ذلك.

وبالجملة فللمشايخ الصديقين مقاصد يدق ويعسر إدراكها على غير أهل العناية ممن نوَّر الله قلوبهم وطهر أسرارهم، نفعنا الله بهم، آمين.

وإذا شاور المريد النقيب المذكور فى شيء ورأى المصلحة له، أو سأله عن مسألة عملية، أو فى طريق القوم وهو يعرفها أرشده إليها، وإذا سأله عن شيء لا يعرفه سأل الشيخ، وعليه أن يتلطف بالمنكر ويكرم الزائر ويرغبه فى الطريق ولا يستحسن على الشيخ رأيا ولا يهمل المريدين يتجاسرون عليه ويسألونه، كى لا تسقط حرمته عندهم، لأن الطريق مبناها على الأدب وبه يحصل الترقى والانتفاع، ومن وظائفه المشى بالقنديل أمام الشيخ ليلاً، ويقرب منه بحيث يسمع كلامه ويرد خطابه، ويحمل معه العصاة، وينبغى له الاشتغال بالتحاصين النافعة قاصدًا بذلك تحويط إخوانه، ويقصد بمشيه أمامه أن يفديه بنفسه، ومن وظائفه السعى لجميع الفقراء وقت الحاجة إليهم، ومن وظائفه حفظ ما يسقط من ثيابهم حال الذكر وإصلاح المصابيح وإعطاء الطيب ووضع البخور وتفريق ما جاء

للفقراء بمعرفة الشيخ، وحمل السجادة وفرشها وطيها، ولا يترك أحدًا يجلس عليها، فإذا كان آخر الليل أيقظ الفقراء للتهجد بلطف ورفق، ويرغبهم بنحو قوله: سار الركب وأنت نائم، البطال لا يطمع فى منازل الأبطال، هذا وقت التجليات فأين الراغبون، هذا أوان المعاملة فأين الباذلون، هيا ياأصحاب الهمم فاز قوام الليل بمطلوبهم، حصل المجتهدون على مرغوبهم، التخلف لا ينفع فيه التأسف، مولاك يدعوك إلى بابه، سيدك يطلبك للجلوس على موائد أحبابه، هل تدرى ما جرى على القوم، يا أسير الغفلة والنوم، ومن وظائفه أنه إذا رأى غافلاً ذكره أو مسيئًا وعظه أو جاهلاً علّمه، أو من يضحك نهره أو مسيء الأدب زجره، فلا يقر على منكر ولا يتغافل عن المريدين، بل يدقق عليهم ويؤاخذهم بما يغلب على ظنه، وإن لم يتحققه.

وبالجملة فهو الشيخ إذا غاب الشيخ، والمشار إليه إذا حضر، وإذا خالفه أحد من المريدين فى معروف أعلم الشيخ بحاله بعد وقوع ذلك مرات منه.

الباب العاشر

فى النفوس وتقسيمها واوصافها

وما يتعلق بها الأسماء التى يستعملها السالك فى كل نفس

اعلم أن علماء التصوف قسموا النفوس إلى سبعة، وبالحقيقة أنها نفس واحدة لكن تسمى باعتبار صفاتها المختلفة بأسمائها، وهذه النفس هى الناطقة، وتسمى باللطيفة الربانية، فكلما اتصفت بصفة سميت لأجل اتصافها بها باسم من هذه الأسماء، فإذا تدنست بالميل إلى الطبيعة والركون إلى الشهوات واتصفت بالبخل والكبر والحسد والعجب وسوء الخلق ونحو ذلك من القبائح سميت أمارة، قال الصديق الأكبر ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[1] ولما سكنت تحت الأمر التكليفى وأذعنت لاتباع الحق وعرفت ما ينفعها غدًا وما يضرها، لكن بقى فيها ميل للشهوات النفسانية سميت لوامة، فإن زال هذا الميل وقويت على معارضة النفس الشهوانية وزاد ميلها إلى عالم القدس وتلقت الإلهامات وفهم الدسيسات سميت مهملة، فإذا سكن اضطرابها وخشع هيجانها ولم يبق للشهوات حكم، بل نسيتها بالكلية وزالت عنها الصفات الذميمة، سميت مطمئنة، فإذا ترقت عن هذا وسقطت المقامات من عينها وفنيت عن جميع مراداتها سميت راضية فإذا زاد هذا الحال عليها، وهو التعلق بالله وطلب رضاه حتى يتساوى عنها وصله وجفاه سميت مرضية عند الحق والخلق، فإذا أمرت بالرجوع إلى العباد بإرشادهم وبسلوكهم وتكميلهم سميت كاملة، ويسمى ذلك عندهم بالمقامات، فطريق الله تعالى منازل عند أهلها يقطعها السالك واحدة بعد واحدة إلى أن يصل إلى آخرها، فينقطع السلوك ولا تنقطع التجليات ولو بعد الموت، كما مر، إذا تقرر ذلك فاعلم، وفقنى الله وإياك لطريق المقربين، أن هذه الطريق، أعنى طريق العارفين، غير

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٣.

محسوس ولا مشهور، وإنما هي سلوك للقلوب إلى علام الغيوب، فيجب على المريد التصديق بآثاره والإذعان لسطعات أنواره، فحال هذا السالك في قطع هذه الطريق والمنازل كحال المسافر في طريق الحج المحسوسة، فإن من أراد السير في طريق الحج لا بد له من ترك مألوفاته، هنا كذلك، ثم يترك الأهل والأوطان رغبة في رضاء الملك الديان، وكذلك هنا لا بد له أن يلتفت بقلبه ولا يسره أهل ولا أوطان ولا أصحاب ولا خلان، بل لا بد له من غير الأنفاس والخلاس ليصير من الأكياس ثم لا بد له من زاد، وهي هنا التقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1] ولا بد له من سلاح يرهب به عدوه، وهو هنا الذكر، ولا بد له من مركب حتى تهون عليه الطريق، وهو هنا الهمة، لأن بها هنا يرتقي المريد إلى أعلا المقامات، ولا بد له من دليل يسير أمامه وهو هنا الأستاذ المربي، فإن من سلك طريقًا بغير دليل تاه وضل وهلك مع الهالكين، ولا بد له من رفقة في طريقه يستأنس بهم ويساعدونه على تزيق الطريق والمراد منهم هنا الإخوان الطالبين مطالبة، ثم إن المسافر إذا سار عد بلادًا وقرى ومدائن ويقيم فيها ثم يرحل عنها متوجها إلى مطلوبه، كذلك المسافر السالك يمر في سيره على تلك المقامات السبعة متوجها إلى مطلوبه.

فالمقام الأول منها: ظلمة الأغيار، ويسمى بالنفس الأمارة.

والثاني: مقام الأنوار، ويسمى بالنفس اللوامة.

والثالث: مقام الأسرار، ويسمى بالمهملة.

والرابع: مقام الكمال ويسمى بالنفس المطمئنة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

والخامس: مقام الوصال، ويسمى بالنفس الراضية.

والسادس: مقام تجليات الأفعال، ويسمى بالنفس المرضية.

والسابع: مقام تجليات الأسماء والصفات ويسمى بالنفس الكاملة.

وكلما كان الإنسان فى مقام من المقامات كان محجوبا به عما بعده، فمن كان فى المقام الأول فهو محجوب بالأغيار عن مشاهدة الأنوار، ومن كان فى الثانى فهو محجوب بالأنوار عن الأسرار، ومن كان فى الثالث فهو محجوب بالأسرار عن الكمال، ومن كان فى الرابع فهو محجوب بالكمال عن الوصال، ومن كان فى الخامس فهو محجوب بالوصال عن تجلى الأفعال، ومن كان فى السادس فهو محجوب بتجلى الأفعال عن تجلى الأسماء والصفات، ومن كان فى السابع فهو محجوب بتجلى الأسماء والصفات عن تجلى الذات، وهو شىء لا يمكن مع أن القوم يذكرونه ويعرفونه.

واعلم أن بين العبد وربه سبعين حجابًا من ظلمة ونور، وهى راجعة إلى العبد، لأن الله تعالى لا يحجبه شىء، والمراد من الحجب عند المحققين بعد المناسبة فافهم، فإنه دقيق، ولا يعتقد أن الحجب أمور حسية ولا البعد بعد مسافة كما يفهمه القاصرون، فإن الله تعالى منزه عن البعد والقرب الحسيين، وعن الجهة والمكان والزمان وسلوك الطريق لتمزيق الحجب السبعين، وهى ترجع إلى السبع مقامات المذكورة، فالنفس فى كل مقام محجوبة بعشرة حجب: الحجاب الأول منها أكثف من الثانى، والثانى أكثف من الثالث، وهكذا إلى العاشر، وكذا كل حجاب فى نفس أكثف من حجب النفس التى بعدها إلى النفس السابعة.

إذا عرفت ذلك فالمقام الأول هى النفس الأمارة فسيرها إلى الله، وعالمها عالم الشهادة، ومحلها الصدور، وحالها الميل، وواردها الشريعة، وجنودها البخل

والحرص والحسد والكبر والشهوة والغضب وسوء الخلق والشرهة والغفلة والخوض والإيذاء باليد واللسان والاستهزاء والبغض، وغير ذلك من القبائح، وذلك لأنها واقعة فى ظلام الطبيعة المدعية بالتأثر فلا تفرق بين أهل الحق والباطل ولا تميز بين الخير والشر، ولا يقدر الشيطان اللعين على الدخول على الإنسان إلا بواسطتها، فكن منها أيها الأخ على حذر ولا تأمن لها ولا تساعدها ولا تنتصر لها إذا آذاها أحد، بل كن معينًا له عليها وحيث تيقنت عداوتها لزمك تقليل الطعام والشراب والمنام لتضعف هذه النفس الشهوانية الحيوانية، لأنها إذا ضعفت هان الخلاص منها، وتقدم الكلام على مجاهدتها، وليكن ذكرك فى هذا المقام لا له إلا الله، وتقدم أن يكون بمد «لا» وتحقيق همزة «إله» وفتح هائه فتحة خفيفة، وتسكين آخر لفظ الجلالة، وعدم الفصل بين الهاء وبين قولك: «إلا الله» وإياك أن تتهاون فى تحقيق همزة «إله» فإنك إن لم تحققها قلبت ياء وصار الذكر لا يلاه يلا الله، وهذه ليست كلمة التوحيد، فلا ثواب بتكرارها، وأكثر منها فى القيام والقعود والاضطجاع فى جميع الأوقات، وذلك بالجهر والقوة، فإن التأثير المطلوب من هذا الاسم لا يحصل إلا بالإكثار والإجهار آناء الليل وأطراف النهار، فإن الذكر بالسر والهوينا لا يفيد رقيا ويطول به الطريق على السالك بخلافه بترك الغفلة مع الاستحضار والإجهار إذا دام على ذلك ملأ قلبه بالأنوار وأودع فيه الأسرار، وهذا الذكر الذى سماه الله فى كتابه العزيز بكلمة التقوى، والكلم الطيب، والشجرة الطيبة، والعروة الوثقى، فهو أفضل الأذكار، وهو حصن الله تعالى، قال ﷺ: «لا إله إلا الله حصنى، فمن دخل حصنى أمن من عذابى» وقال ﷺ: «لا إله إلا الله أفضل الذكر، وهى أفضل الحسنات، أسعد الناس بشفاعتى من قالها خالصًا من قلبه، ما من عبد قالها ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنا

وإن سرق، وإن زنا وإن سرق، وإن زنا وإن سرق» وقال ﷺ: «من صلى الصبح في جماعة ثم يقعد يذكر لله تعالى حتى تطلع الشمس ثم يصلي ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة» وفي رواية أخرى: «انقلبت بأجر حجة وعمرة» وقال ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إليّ من عتق رقبة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر حتى تغرب الشمس أحب إليّ من الدنيا وما فيها».

والملازم على هذه الكلمة يرى لها من الأسرار ما لا يدخل تحت حصر، وتورثه التوحيد الخاص المعروف عند القوم، وتلبسه الخام.

فادخل يا طالب الخلاص حصن مولاك وخلّص نفسك من سجن الطبيعة لتنال المقامات الرفيعة مع المجاهدة، وأكل الحلال وأصقل مرآة قلبك ليزول عنها الران المانع لها من إدراك حقائق الأشياء وعن فهم دقائق العلوم، لأنه مرآتك، وأنت في هذا المقام قد علاها الصدأ من الكبر والفجور والطمع والعجب والشهوة والشهرة والحقد والحسد والغضب وسوء الخلق، وغير ذلك مما تعرفه من نفسك من الجهل والغرور، فالواجب الأهم في هذا المقام الخلاص من هذه النجاسات التي منعت القلوب عن مطالعة الغيوب بالذكر الكثير.

تنبيه: ولا يجوز للشيخ المسلك أن ينقل مريده من الاسم الأول إلى الاسم الثاني حتى يطهر من لوث دنس غبار الأغيار، ويتنور ظلمة ليل وجوده بأقمار معارف الأنوار، ويغيب في وجوده عن مسماه في شهوده، فلا يزال في معراج هذا الاسم صاعدا، وبالاشتغال لنيران اشتعاله واقدًا حتى تناديه روحانيته من غير حجاب، وتخاطبه بأفصح خطاب، فحينئذ يشرف على عالم شهادته ويلبس خلع سيادة سعادته بعد نزع صفات طبائع عادته، فإذا اشتغلت في خلاص نفسك من

هذه الآفات، وبدلت أوصافها الذميمة بأحسن صفات حميدة، شاهدت بعض العجائب المكنونة والأسرار المخزونة فى صدف البشرية، وفهمت قول المحقق شعرا:

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك ولا تشعرُ
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبرُ

المقام الثانى: النفس اللوامة: فسيرها إلى الله وعالمها عالم البرزخ ومحلها القلب وحالها المحبة وواردها الطريقة وصفاتها اللوم والفكر والعجب والاعتراض على الخلق والرياء الخفى وحب الشهرة والرياسة، وقد بقى معها بعض أوصاف الأمارة، لكن مع هذه الأوصاف ترى الحق حقًا وترى الباطل باطلاً، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة ولها رغبة فى الطاعات وفى المجاهدات وموافقة الشرع، ولها أعمال صالحة من قيام وصيام وصدقة، وغير ذلك من أفعال الخير، لكن يدخل عليها العجب والرياء الخفى، فيحب صاحب هذه النفس أن يطلع الناس على أعماله الصالحة، مع أنه يخفيها عنهم ولا يظهرهم عليها ولا يعمل لهم، بل عمله لله تعالى، إلا أنه يحب أن يُحمد ويثنى عليه من جهة أعماله، ومع ذلك يكره هذه الخصلة ولا يمكنه قلعها من قلبه بالكلية، ولو أمكنه كان من المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم، قال ﷺ: «كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم» وذلك لأن المخلص يحب أن يكون معروفًا بالإخلاص، وهذا هو الرياء الخفى عند المحققين، لأن الرياء الجلى: العمل لأجل الناس، فإن كنت متصفًا بهذه الصفات فأنت فى المقام الثانى، ويقال لنفسك: لوامة، وهو مقام لا يسلم صاحبه من الخطر، ولو أخلص فى أعماله،

وهذا مقام ثانٍ بالنسبة إلى سلوك المقربين الطالبين الفناء عن نفوسهم والبقاء بربهم، الذين أمروا بالموت قبل انقضاء آجالهم فقال لهم: موتوا قبل أن تموتوا.

وأما بالنسبة إلى الأبرار أهل اليمين فهو آخر منازلهم، وأعلى مقاماتهم، ولذلك قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لأن المقربين لا يقفون عند هذا المقام الثانى بل يطلبون غيره إلى أن يصلوا سابع مقام، فيكون لهم بعد ذلك خمس مقامات، وإنما لم تقف المقربون فى المقام الثانى لما فيه من الخطر العظيم، لأن أعلا درجات هذا المقام الإخلاص، والمخلصون على خطر عظيم، ولا يكون الخلاص من هذا الخطر إلا بالفناء عن شهود الإخلاص بشهودهم إذ المحرك والمسكن هو الله تعالى، شهود ذوق، وهذا الشهود متوقف على سلوك طريق المقربين، وإن الأبرار لا تصل إليه ولا تشم لا رائحة، لأنهم نظروا أنهم أوجدوا أعمالهم فطولبوا بالإخلاص، ولم يشهدوا أن الله تعالى خالق الأفعال كلها فوقفوا بالعناء والتعب، وصار أحدهم لو دخل فى جحر ضب لقيض الله له من يؤذيه، وذلك لما فيه من الشهرة المقتضية للعجب والكبر وسوء الخلق، ونحو ذلك، وهذه الأشياء مقتضية للتعب والعناء وضيق الصدر، وضرب بعضهم مثالاً يوضح الفرق بين الأبرار والمقربين، وبين تعب هؤلاء وراحة هؤلاء فقال: مثال ذلك كشجرة عظيمة خبيثة كثيرة الأغصان كل غصن منها يثمر نوعًا من السم القاتل، فجاء أناس فاشتغلوا بقطع تلك الأغصان ولم يلتفتوا لقطع تلك الشجرة من أصلها، ولا لقطع الماء عنها لتيبس، وأرادوا التخلص منها، فلا يمكنهم الخلاص، لأنهم كلما قطعوا غصنا نبت غيره لبقاء الشجرة، ودوام سقيها، فجاء آخرون فقطعوا الماء عنها فضعفت ولم تثمر فتخلصوا منها وأراحوا نفوسهم من تعب هؤلاء، فالشجرة مثل بطن الإنسان، والمآكل مثل الماء، والأغصان مثل الصفات الذميمة كالكبر والحسد، والثمرة مثال لما يحصل من هذه الصفات من الآثار فى الخارج، فالأبرار لما علموا

بالدليل أن هذه الصفات مهلكة للإنسان فى الدنيا والآخرة سعوا فى إزالتها شيئًا فشيئًا، ولم يقدروا على الخلاص فيها بالكلية، لأنهم كلما ملئوا بطونهم بالشهوات تقوى بشريتهم ويتمكن الشيطان منهم، فيقع منهم تلك الأشياء بالجوع والمجاهدات، وعلموا بالدليل والتجربة أن البطن هى منبع الفساد والصفات الذميمة، سعوا على الخلاص من شره بذلك، فتخلصوا من جميع تلك الصفات، فإذا أردت الانتظام فى سلكهم والخلاص من جميع الآلام والراحة على الدوام فاسلك مسلكهم واقْفُ أثرهم بالترقى من مقام إلى مقام حتى تصل إلى المقام السابع، ففيه ترى العجائب، والترقى يكون بالمجاهدة والاشتغال بالأسماء، ففى كل مقام تشتغل به باسم مخصوص بذلك المقام، وكلما أكثرت من الاشتغال به قربت عليك الفتح فى الطريق، وكلما توانيت وأهملت وتراخيت بعدت عليك، واشتغل أنت فى هذا المقام بالاسم الثانى وهو: الله الله الله، بسكون الهاء، وكذا بسكون آخر كل اسم من السبعة، وأكثر منه، فإنه لا ينفع ولا يظهر العجائب إلا الإكثار آناء الليل وأطراف النهار، واجعل لك أوقاتًا تجلس فيها مستقبل القبلة، إذا أمكنك، وغمض عينيك واذكر هذا الاسم بشدة وقوة ورفع صوت، وارفع رأسك إلى فوق واضرب به صدرك، كما مر، ولا تلتفت يمينًا ولا يسارًا، وحقق همزة الله ومد الألف قبل الهاء الساكنة، وإياك أن تفضى بك العجلة إلى أن تقول: هلا هلا، ولا يكون لك ذلك إلا إذا تركت تحقيق الهمزة، واعلم أنه ليس فى الأذكار كلها أوسع مددًا ولا أقرب تأثيرًا منه فى ذلك المحل، فيطلع الذاكر بالإكثار منه على الأحوال الغيبية والأسرار الملكوتية وما لا يدخل تحت حصر، وبالحقيقة فهو الاسم الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى، بشرط أكل الحلال والمشى على طريق الكمال، فعليك بالإكثار من هذا الاسم فإنه سيد الأسماء، ومحط رحال العلماء الذى يشير إليه الأولياء، ويتحلى به الأصفياء، ثم

اعلم أنك فى هذا المقام كثير الخواطر كثير الوساويس، ولهذا الاسم نار تحرق به ذلك فكن مكثرًا منه ولا تبالِ بالخواطر، فلا يمكنك الخلاص منها بالسرعة لأن مرآة قلبك متوجهة للخلق، ولا شك أن المرآة إذا توجهت إلى شيء انتقش ذلك الشيء فيها، فإن كنت متعشقًا إلى زلال الوصال فاترك الخلق وجميع اللذات ولازم المجاهدة تنتج المشاهدة، فإذا أردت المقامات العلية فاترك الخلق بالكلية وانسَ جميع أهلك وصحبك واشتغل بربك وهو الفتاح العليم، وهذا المقام أول مقام المقربين.

المقام الثالث: النفس الملهمة، فسيرها إلى الله بمعنى أن السالك لا يقع نظره فى هذا المقام إلا على الله لظهور الحقيقة الإيمانية على باطنه، وفنى ما سوى الله فى شهوده، وعالمها عالم الأرواح ومحلها الروح وحالها العشق، وواردها المعرفة وصفاتها السخاء والقناعة والعلم والتواضع والصبر والحلم وتحمل الأذى والعفو عن الناس وحملهم على الصلاح وقبول عذرهم، وشهود أن الله آخذ بناصية كل دابة، فلم يبق له اعتراض على مخلوق أصلا، ومن صفاتها: الشوق والهيمان والبكاء والقلق والإعراض عن الخلق، والاشتغال بالحق، والتلوين وتعاقب القبض والبسط وعدم الخوف والرجاء وحب الأصوات الحسنة، وزيادة الهيمان عند سماعها، وحب الذكر وبشاشة الوجه والفرح بالله والتكلم بالعلم والمعارف والمشاهد، وسميت ملهمة بأن الله تعالى ألهمها إما فجورها أو تقواها، لقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[1] أى طهرها بالمجاهدة بإلهام ما تتقى الله به.

واعلم أنه لا يكون الخلوص من هذا المقام إلا بأنفاس المسلك ليخرجه من ظلمات الشبهات إلى نور التجليات، لأنه وهو فى هذا المقام ضعيف الحال

(١) سورة الشمس: آيتا ٨، ٩.

لا يفرق بين الجلال والكمال، ولا بين ما ألقاه الملك ولا ما ألقاه الشيطان، لأنه لم يخلص من الطبيعة بالكلية، ولم يسلب عنه جميع مقتضيات البشرية ويخشى إن غفل عن نفسه أن تهوى إلى سجين وأسفل سافلين، أعني المقام الأول الذى تسمى فيه النفس بالأمارة فرجع إلى ما كان عليه من الأكل الكثير والشرب الكثير والنوم الكثير والاختلاط مع الخلق، وربما يفسد اعتقاده ويترك الطاعات ويرتكب المعاصي ويزعم أنه موحد مكاشف بحقائق الأشياء وأنه من المحققين، وأن غيره من أهل الطاعة محجوب من هذا الشهود، فإذا فسد اعتقاده هلك مع الهالكين، والتحق بالكفرة المشركين، وضاع تعبه وعناه وما بلغ مناه، فظن أن التخيلات الشيطانية تجليات رحمانية، فالواجب عليك أيها الأخ متابعة الشيخ، وإن سولت لك نفسك أنك أعلى منه وأنك موحد، وهو محجوب، ويجب عليك أيضًا اتباع الشرع وملازمة الأدب، وتكره نفسك على ملازمة الأوراد وتقيدها بقيود الطريق لأنها فى هذا المقام مائلة إلى الإطلاق وخلع العذا وعدم المبالاة.

والمقصود مخالفتها إلى أن تطمئن، وذلك بالوصول إلى المقام الرابع، ففيه سعادة الدارين وقرة العين، ومتى وضع السالك قدمه فيه خلص بعون الله من جميع الآفات النفسانية، لأنه ترقي إلى أول درجات الكمال، وهبت عليه نسمات القرب والوصال، وانتقل من التلوين إلى التمكين فلا يحتاج إلى المسلك إلا القليل من السالكين، فانهض واترك رعونات النفس ولا تغتر بما لاح لك من التوحيد فإنه سبب لرجوعك وانقطاعك عن مطالبك العلية مستعينًا به على تمزق ما بقى من الحجب النورانية واطلب الحضرة الأحدية، وتعلق بأذيال شيخك، ودُمْ على ما كنت تفعله من تقليل الطعام والمنام وتقليل الاجتماع بالناس، ولا يغلب على

ظنك أنك أعلم من شيخك فتُحرم المدد منه، واجزمْ بأن خلاصك على يديه وتحمل ما تلقاه منه من الأذى، وإياك أن تنكر عليه حالة من حالاته.

وبالجملة فإن هذا المقام الثالث مقام تذل فيه الأقدام جامع للخير والشر، فإن غلب خيرها على شرها ترقت إلى المقامات العلية، وإن غلب شرها على خيرها نزلت إلى سجين الطبيعة وأرض القطيعة وأسفل السافلين، فيجب عليك حينئذ إتعاب النفس وتحقيرها، وعلامات غلبة الخير على الشر أنك ترى باطنك معمورًا بالحقيقة الإيمانية بأن تعتقد أن ما فى الوجود جارٍ على وفق إرادة الله، مقدرًا بقدرته تعالى، ويكون ظاهرك متلبسًا بالطاعات مجتنبًا جميع الكبائر والصغائر، كثير الاجتهاد، وعلامة غلبة الشر على الخير أن تترك الطاعات، ولا يكون ظاهرك معمورًا بالشريعة، وفيه ضد ما تقدم.

ثم اعلم أن رضاء الله وتجلياته لا تصل للعبد إلا من باب الطاعات، وأن سخطه وطرده وبعده لا يصل للعبد إلا من باب المعصية، ولقد أخفى غضبه فى معاصيه ورضاه فى طاعته، فقف على باب الشريعة وآدابها وقفة الذليل، واسأل مولاك واستعن على مطالبك بتلاوة الاسم الثالث، وهو هو تظهر إن شاء الله على الهوية السارية فى جميع الموجودات، لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وليكون أولا بياء النداء ثم بدونها، وتكثر من تلاوته فى جميع الأوقات فى القيام والقعود والاضطجاع آناء الليل وأطراف النهار لتتخلص ببركته من خطر هذا المقام، وبه ينقطع ما بقى من التعلقات بالنفس إلى المقام الأول والثانى لأنها لا تخلو من الالتفات إليهما، لأن الطبع يغلب الطبع، وهى تترقب غفلتك، فمتى غفلت عن سوقها وزجرها عادت لإلفها وشوقها فى هذا المقام بالعشق والهيمان والشوق إلى

الوصال والاجتماع مع الإحباء وتذكر لقاء المحبوب والتمتع بجمال المعشوق، فإن هذه الأشياء تقوى السالك على السير، خصوصًا إذا رأى نفسه رجع إلى ورائه.

واعلم أنك يا حبيبى فى هذا المقام تحتاج إلى خلع العذر وإسقاط حرمتك فى أعين الناس، حتى لا يكون لهم بك علقًا ولا يكون لك عندهم قيمة ولا قدرًا ولا ذكرًا لأن هذه الأشياء يلتذ بها العاشق، وبها يعلم الكاذب من الصادق.

قال سيدى عمر بن الفارض:

ولو عز فيها الذل ما لذ للهوى ... ولم يك إلا الحب فى الذل عزتى

فاخلع العذر ولا تخش من العار، فإنك فى هذا المقام لا يعسر عليك خلع العذار كما يعسر فى غيره من المقامات، لأن هذا المقام مقام العشق، والعاشق لا يعسر عليه خلع العذار، فإذا أتممت خلع العذار ماتت نفسك الشيطانية القاطعة لك عن مرادك، يحصل لك خطاب الروحانيين بأمر أو نهى أو خبر، فلا تلتفت إلى شيء من ذلك واخلع العذر بأن تستعمل أمورًا تسقط حرمتك فى أعين الناس موافقة للوجه الشرعى، وفائدة خلع العذر قطع الموانع التى تمنع عن لقاء المحبوب.

تنبيه: مر أن خواص هذه الأسماء لا تظهر إلا بكثرة الذكر الجلى القوى للمداومة على الأدب، وهو أن يكون مستقبل القبلة إذا أمكنه جالسًا على ركبتيه أو قائمًا مغمضًا عينيه وأن يكون خاليًا للبال، وأن يلقى سمعه إلى نطقه صاغيا لما يقول، مع نظافة الظاهر والباطن، فإن كنت مع هذه الآداب متمسكًا بالشريعة فقد قرب الفتح عليك، فلا تمل ولا تضجر إذا تعوق عليك الفتح، فإنه لا بد لك منه، لكن بشرط الاستقامة والتمسك بالشريعة والطريقة، واجعل ذكرك بهذا الاسم فى بعض الأوقات «لا هو إلا هو» بمد «لا» ومد واو «هو» لأنه ذكر عظيم الشأن، وكن حالة الذكر كأنك تخاطب أعضاءك بأنه ليس فى الوجود إلا

هوية الحق تعالى، وأنّ كل ما سوى الله فهو آثار صفاته وأفعاله، فهذا المشهد مشهد الكاملين.

المقام الرابع: وهى النفس المطمئنة، فسيرها مع الله، وعالمها عالم الحقيقة المحمدية، ومحلها السير، وحالها الطمأنينة الصادقة ووارد‌ها بعض أسرار الشريعة، وصفاتها الوجود والتوكل والحلم العبادة والشكر والرضا بالقضاء والصبر على البلاء، وعلامة ذلك فى هذا المقام أنك لا تفارق الأمر التكليفى شبرًا، ولا تلتذ إلا بالتخلق بأخلاق المصطفى ﷺ، ولا تطمئن إلا باتباع أقواله، لأنّ هذا المقام مقام تمكين.

وفى هذا المقام يلتذ للسالك أعين الناظرين وإسماع السامعين، حتى إنه لو تكلم طول الدهر لا يمل كلامه، وذلك لأن لسانه يترجم به عن إلقاء الله فى قلبه من حقائق الأشياء وأسرار الشريعة، فلا يتكلم كلمة إلا وهى مطابقة لما قال الله ورسوله من غير مطالعة فى كتاب ولا سماع من أحد، لأنه قد سمع بغير حاسة ما ألقاه الله فى سرّه وخلع عليه الوقار والقول فيجب على السالك فى هذا المقام الاجتماع مع الخلق فى بعض الأوقات ليفيض عليهم مما أنعم الله به عليه، ويترجم عما فى قلبه من الحكم الإلهية، وليكن له مع الله وقتًا لأنه وهو فى هذا المقام فى أدنى درجات الكمال، فلا يناسبه مخالطة الخلق فى جميع الأوقات لئلا يحرم الترقى إلى المقامات الباقية، أعنى الخامس والسادس والسابع، فمتى رأى الفائدة فى العزلة اعتزل، أو فى الاجتماع اجتمع، وعلامة فائدة الاجتماع أن يستفيد الحاضرون منه مما أوهبه الله من العلم، أعنى علم الصدور لا علم السطور، واشتغل وأنت فى هذا المقام بالاسم الرابع، وهو: حق حق حق، بحرف النداء أو بدونه فأكثر منه، ولا تلتفت لما ظهر لك واطلب من ربك أن لا يظهرك على ما يكون سببًا

لانقطاعك عن خدمتك، ولذلك ترى المحفوظين من الكمل إذا أظهر الله على أيديهم شيئًا من الكرامات لا يلتفتون إليها ولا يعلمون، أظهرت لهم كرامة أم لا، فتركوا ذلك وقالوا:

كل شى ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وإذا كانت الكرامات ليست شيئًا قبيحًا لأنها إكرام من الله لعباده، ولكن تطلبها والميل إليها قبيح قاطع عن حضرات القرب التى لا تنال إلا بالعبودية المودع فيها أسرار الربوبية، ومتى أحب ذلك خرج من العبودية وصار يتظاهر بها على غيره.

واعلم أن السالك فى هذا المقام يحب الأوراد ويميل إليها، وكذا الأدعية، ويحب حضرة النبى ﷺ محبة غير المحبة التى كانت قبل هذا المقام، ولا تأمن من النفس فى هذا المقام ولا غيره، لأن العدو الذى غرست فى طبعه العداوة لا يؤمن وإن صار صديقًا، ولأن الإنسان متعرض للمحن والبلايا، وقد يعرض له حب المال هنا فلا يضره، بشرط أن يكون قصده به الاستعانة على الله وعلى أن يعين به الأخوان وأن لا يشتغل قلبه بتحصيله، وإن حصل شيئًا منه فلا يخفيه عن الناس إظهارًا لنعم الله عليه، وتحدثًا بنعمته، ويظهر لهم الفقر من نفسه والتبرى من الحول والقوة، وقد يعرض عليه فى هذا المقام حب الرياسة وتدخل عليه نفسه بأن يتعرض للمشيخة والإرشاد واجتماع الناس عليه ليحصل على يده الاهتداء فلا يلتفت إلى ذلك، فإنها دسيسة من النفس، فليحذر ويدفن وجهه فى الخمول، وأما إذا أقامه الله وأشهره وألبسه ثوب المشيخة من غير سعى منه ولا جد ولا تطلب، ومع ذلك يحب الخمول فلا بأس بظهوره، فإنه خير له من الاعتزال، وعلامة إقامة الله له أن يكون محبوبًا لإخوانه وهم مطيعون له، ولا يرى لنفسه عليهم تميزًا

كأنهم خير منه من وجه، لأنهم يرون أنفسهم أحقر منه، فيكون هو أعظم احتقارًا منهم طالبًا بذلك دعوة صالحة منهم تدخله رحمة ربه، وإذا وصل السالك إلى الرابع وصارت النفس مطمئنة إلا أنها لا تصلح للإرشاد لانعدام شروطه منها، فينبغي أن لا يستعجل فى التقدم حيث كان هناك من هو أفضل منه، ويكمل سلوكه بالترقى إلى المقام الخامس فالسادس فالسابع، وإذا عرفت الفرق بين النفوس عرفت أنه لا خلاف فى المعنى بين من قال: إن المقامات سبعة التى يترقى بها السالك وهم الخلوتية، وبين من قال: إنها ثلاثة وهم غيرهم، لأن غير الخلوتية لا يعدون المقام الأول مقامًا فيعدون الثانى والثالث والرابع، ولا يعدون الخامس والسادس والسابع لأنهم لم يعتبروا النفوس الزكية باعتبار الفطرة، ولا شك أن هذه النفوس إذا وصلت للمقام التى تكون فيه النفس مطمئنة كملت وصلحت للإرشاد، وأما الخلوتية الذى هذا الكتاب على مذهبهم فجعلوا المقامات سبعة وجعلوا أولها مقام النفس الأمارة آخرها النفس الكاملة، فغير الخلوتية لا يلقنون السالك إلا ثلاثة أسماء، فلا يلقنونه وهي فى النفس اللوامة إلا: لا إله إلا الله، وفى أوائل الملهمة: الله الله الله، وفى آخرها هو هو هو، وبهذا الاسم يدخل على المطمئنة ولا يلقنونه غيره بخلاف الخلوتية، فإنهم يلقنونه سبعة أسماء فى السبعة نفوس، ففى الأول يلقنونه لا إله إلا الله فإذا ظهرت العلامة واستحق النقلة لقنوه الله الله إلى آخر السبعة، هكذا كلما ظهرت العلامة نقلوه إلى ما بعده إلى آخر المقامات. انتهى.

المقام الخامس للنفس الراضية: فسيرها فى الله وعالمها اللاهوت، ومحلها السر، وحالها الفناء لكن لا بمعنى اللفظ الذى مر بيانه، والفرق بينهما أن ذلك حال المتوسط فى الطريق وقد عرف أنه ذهول الحواس عن المحسوسات وهذا حال

المشرفين على البقاء الذين هم فى آخر السلوك، والمراد به محو الصفات البشرية والنهي للبقاء من غير أن يعقبه البقاء فى الحال، لأن ذلك الفناء هو حق اليقين وهو بعد الفناء، وهذه النفس ــ أعنى الراضية ــ لها وارد، لأن الوارد لا يكون إلا مع بقاء الأوصاف، وقد زالت فى هذا المقام حتى لم يبق لها أثر ولذلك كان السالك فى هذا المقام فانيا لا باقيا بنفسه كما كان قبل هذا المقام، ولا باقيا بالله كما يكون فى المقام السابع، وهذه الحالة لا تدرك إلا ذوقًا، وقد يمكن الكامل أن يفهمها للمريد المتهيئ للكمال.

وصفات هذه النفس: الزهد فيما سوى الله، والإخلاص والورع والنسيان والرضا بكل ما يقع فى الوجود من غير اختلاج قلب ولا توجه لدفع مكروه، ولا اعتراض أصلاً وذلك لأنه مستغرق فى شهود الجمال المطلق ولا تحجبه هذه الحالة عن الإرشاد والنصيحة للخلق، وأمرهم ونهيهم ولا يسمع أحد كلامه إلا وينتفع به كل ذلك وقلبه مشغول بعالم اللاهوت وسر السر، وصاحب هذا المقام غريق فى بحر الأدب مع الله لا ترد دعوته، والحق أن صاحب هذا المقام ليس له ركون إلى ما سوى الله فمتى رأيت نفسك تركن لغيره فاعلم أنك لست من أصحاب هذا المقام، لأن صاحبه أشرف على سلطنة الباطن التى جميع الظواهر تحت قهرها، واشتغل وأنت فى هذا المقام بالاسم الخاص وهو: «حى حى حى» فأكثر منه فيزول فناؤك، ويحصل لك البقاء بالحى فتدخل فى المقام السادس وتترقى من الوقوف على الباب إلى منازل الأحباب ونعت بالحى واتصفت بالصفات الكاملة وهو معنى: «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» المعبر عنه بقرب النوافل.

واعلم أن من الأسماء أسماء يقال لها فروع، وهى: الوهاب الفتاح الواحد الأحد الصمد فاشتغل وأنت فى هذا المقام باسم الفتاح أو باسم الوهاب مع الخامس وهو الحى، يسهل عليك الانتقال إلى المقام السادس الذى أنت فيه فى غاية الاحتياج، والله الموفق الهادى.

المقام السادس للنفس المرضية: فسيرها عن الله وعالمها عالم الشهادة ومحلها الخفاء وحالها الحيرة وواردها الشريعة وصفاتها حسن الخلق وترك ما سوى الله واللطف بالخلق وحملهم على الصلاح والصفح عن ذنوبهم وحبهم والميل إليهم لإخراجهم من ظلمات طبائعهم وأنفسهم إلى أنوار أرواحهم، للميل الذى فى النفس الأمارة لأنه مذموم.

ومن صفات هذه النفس: الجمع بين حب الخلق والخالق، وهو عجيب لا يتيسر الأصحاب هذا المقام، ولذلك صاحبه لا يتميز من العوام بحسب ظاهره، وأما بحسب باطنه فهو معدن الأسرار.

وسميت هذه النفس بالمرضية لأن الله قد رضى عنها، ومعنى كون سيرها عن الله أنها أخذت ما تحتاجه من العلوم من حضرة الحى القيوم ورجعت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لتفيد الخلق مما أنعم عليها، وحالها الحيرة المقبولة، وهى المشار إليها بقوله: رب زدنى تحيرًا، إلا الحيرة المذمومة التى فى أهل السلوك.

ومن شأن صاحب هذا المقام الوفاء بما وعد الله، فلا يخلف الله وعده أصلاً وضع كل شىء فى محله فينفق الكثيرة إذا صادف محله حتى يظن المجهول أنه أسرف، ويبخل بالقليل إذا لم يصادف محله حتى يظن المجهول أنه أبخل من كل بخيل، ولا يلتفت لمدح ولا ذم فى الإعطاء.

ومن أوصافه أن جميع شئونه فى الحالة الوسطى وهى بين الإفراط والتفريط، وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا من كان فى هذا المقام.

واعلم أنك فى أول هذا المقام تلوح لك بشائر الخلافة الكبرى، وفى آخره تخلع عليك خلعتها وفى خلعه «كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى» وهذه نتيجة قرب النوافل، وهو أن يكون التأثير للعبد باستعانة الحق بمعنًى قد اتصف بصفات التأثير من فيض الملك القدير، فافهم.

وتحقق هذا المقام أن السالك إذا وصل إلى مقام الفناء، وهو المقام المذكور قبل هذا، تمحق صفاته الذميمة البشرية التى هى محل الانفعال والشقاوة والدعو وذلك هى سبب قربة بالنوافل التى هى الرياضات والمجاهدات للنفس، وقد جرت عادة الله أن يهبه كرمًا منه صفات مناقضة لتلك الصفات مؤثرة بإذن واهبها، وهذا هو حق اليقين الآتى فى الخاتمة، والحق أن هذه الأمور لا تدركها العقول، ومتى حاول إدراكها العقل وقع فى الزندقة لأن الفناء ليس فى الخارج له نظير حتى يمثل له، وكذا البقاء بالله، وكذا قرب النوافل وقرب الفرائض، واشتغل وأنت فى هذا المقام بتلاوة الاسم السادس وهو: «قيوم قيوم قيوم» فأكثر منه تصير حسنات الأبرار سيئات لك، ولا تزال متأدبًا بآداب الشريعة والطريقة إلى أن تنتقل إلى المقام السابع طالبًا التحقيق بالسورة الآدمية التى كانت قبل الملائكة التى حقيقتها الحقيقة المحمدية.

المقام السابع: التى تسمى فيه النفس بالكاملة، فسيرها بالله، وعالمها كثرة فى وحدة وحدة فى كثرة، ومحلها الإخفاء الذى نسبته إلى الخفاء كنسبة الروح إلى الجسد، ووردها جميع ما ذكر من الأوصاف الحميدة الحسنى للنفوس المتقدمة،

ومفتاحها الاسم السابع، وهو: قهار قهار قهار، فليكثر منه وهو أعظم المقامات لأنه قد كملت فيه سلطنة الباطن وتمت فيه المكابدة والمجاهدة وتحقق بإشارة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1] الآية، ليس لصاحب هذا المقام مطلب سوى رضوان الله، حركاته حسنات، وأنفاسه قدرة وحكمه عبادة.

واعلم أن اسمه تعالى القهار اسم القطب، قال المشايخ: ومنه يمد القطب المريدين الطالبين بالأنوار والهدايات والبشارات، وقالوا: مهما حصل فى قلوب المريدين من الفرح والسرور والجذبات الكائنة بغير سبب فهو من مدد القطب عوضًا عن أذكارهم وتوجهاتهم لربهم.

وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة، وذلك إما بجميع البدن أو باللسان أو بالقلب أو بالرجل، وهو كثير الاستغفار، كثير التواضع، سروره ورضاه فى توجه الخلق إلى الحق، وضره وغضبه فى إدبارهم عن الحق يرضى برضاه ويغضب لغضبه، يحب طالب الحق أكثر من محبة ولده الذى من صلبه، وهو كثير الأوجاع قليل القوى قليل الحركة، ليس فى قلبه كراهة لمخلوق، مع أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويظهر الكراهة المجازية لمستحق الكراهة، ويظهر المحبة لمن هو أهل المحبة، لا يخاف ولا يخشى إلا الله، لا تأخذه فى الله لومة لائم، يرضى فى عين الغضب، ويغضب فى عين الرضا، لكنه يضع كل شيء فى محله متى وجه همته إلى كون من الأكوان، أوجده الله تعالى على وفق مراده، وذلك لأن مراده مراد الله لا يطلب إلا ما أراده الله، فإذا أراد شيئًا وطلبه منه لا يرده ولا يخيبه.

---

(١) سورة التوبة: آية ١١١.

لتمة: اعلم أن الإنسان من أشرف الموجودات ومجمع عالم الغيب والشهادة وروحانيته على مثال عالم الشهادة، و لم يخلق الله شيئًا في الدنيا والآخرة إلا وخلق الله فيه صفة تناسب ذلك الشيء، فجميع صفات العالم مودعة فيه، ولذا سمي بالعالم الأصغر، ولذلك أن السيار إذا عبر على الصفات الحيوانية فأى صفة يعبر عنها في البهيمية يرى حيوان تلك الصفة غالبًا، فيرى فى صفة الفأر والنمل، فإن كان حرصه كثيرًا رأى الفأر وإن كان قليلاً رأى النمل، فإن رأى الفأر والنمل افترس به أو عضه دل على قوة تلك الصفة فيه، وإن رآهما ماتا أو قطعا دل على موت تلك الصفة، ويرى سنة الشر مثلاً على صورة الدب والخنزير لأن كلا منهما شجيته الشر، لكن الأولى أشد ضررًا على الأعمال الظاهرة، والثانى أشد ضررًا على الأعمال الباطنة، فإن رآهما قويين دل على قوة تلك الصفة فيه، وإن رأى أحدهما قويًا والآخر ضعيفًا دل على ضعف تلك الصفة تارة وقوتها أخرى، وإن رآهما ضعيفين دل على ضعفهما فإن رآهما ميتين منقطعين دل على موتهما أو انفصالها عنه، وإن رآهما آذياه وضراه دل على ضرر فى دينه يرى صفة البخل على صورة الكلب والقرد، والأول أشد فى الأمور المعنوية، والثانى أشد فى الأمور الحسية، فتارة يراهما السالك قويين أو ضعيفين، أو أحدهما قوى والآخر ضعيف، على وزن ما تقدم فى النمل والفأر، وإن رآهما قويين لكن لم يفترساه ولا أحدهما دل على تحريك تلك الصفة لكن لم يضره ذلك لتفكره وتبصره، ويرى الكبر المذموم على من شأنه ذلك فإن رآه ضعيفًا دل على ضعفها، أو قويا دل على أنه قوى، فإن رآه قاتله دل على منازعة تلك الصفة الخبيثة لصفة التواضع، وإن غلبه وقتله دل على خروجه منها بالمجاهدة لكن إن كان القتل بسيف فهو بالذكر، وإن رآه فانيا ميتًا فتلك الصفة فنيت عنه ويرى الحق المذموم على صورة الحية، وهو

ضد المسامحة ويرى الغضب المذموم شرعًا على صورة الحمار الذكر فإن رأى واحدًا من ذلك مات تحته دل على موت تلك الصفة منه، وإن رأى أنه راكبًا فرسًا فذلك علامة سيره بالقلب أو جملاً فذلك علامة على الهمة، وذلك بقدر علوه عن الأرض، وإن رأى أنه فى سفينة فى تلك البحر فتلك الشريعة والبحر الطريقة، وقدر سيرها على قدر سيره، والمسك كسب حلال، والأوز والدجاج والحمام مثال حرصه على الحلال، وعسل النحل أخلاق جيدة، وإن رأى نساء دل على نقصان العقل، ورؤية القمر دليل على ارتكاب المكروه، وإذا رأى إنسانًا مقصوص اللحية دل على نقص الشرع منه، ومثله محلوق اللحية، ومن رأى أعرج دل على أنه ادعى الحق ولم يمش عليه، ورؤية المكسح عصيان أمر الله، ورؤية الأعمى دليل على كتمان الشهادة، ورؤية الأطروش دليل على عدم سماع الشريعة والوعظ، ورؤية الأخرس دليل على أنه لا يتكلم فى الحق ورؤية الحلوى دليل على شرك العبادة، ورؤية الدلال والدلالة دليل على الكذب، ورؤية القصاب دليل على قساوة القلب، ورؤية المصحف والقراءة دليل على صفاء القلب، ورؤية المشايخ دليل على الإرشاد لنفسه، ورؤية المدينة المنورة والكعبة والقدس دليل على الطهارة من الدنس، ورؤية السيف والموسى والمدافع والنعتك دليل وإشارة على الوساوس الشيطانية، ورؤية الحور والملائكة والجنة دليل على كمال عقله والقرب إلى الله، ورؤية الشمس والقمر حصول معارف الله عز وجل.

تنبيه: إذا أكثر السالك من الذكر تظهر له كرامات وعلامات ويكشف له عن طبائعه الأربع: الماء والتراب والهواء والنار، وصفالها وكدرالها بحسب قوة الاستعداد وعدمه فيرى مياهًا كثيرة وتلالا وطيرانا فى الهواء ونيرانًا مختلفة سودًا وحمرا وزرقًا وصفرًا وبياضًا، فإذا صفا ذلك العنصر بالمداومة على الذكر يرى

سراجًا ومصابيح وشموعًا وقناديل ونيرانًا صافية، وربما يدخل فيه النار ويمشى عليها من غير أن تلحقه مضرة ويتلذذ برؤية هذه الأشياء، فإذا رأى هذه العناصر المكدرة دل على تغير الباطن والتقصير فى بقى الخواطر، فينفى ذلك بالذكر الجهرى بالشدة والقوة، كما مر، مع استحضار الشيخ، ثم ينتقل إلى عالم الأنوار فيرى أنوارًا مختلفة، فما يكون على صورة البرق واللوامع فأكثره منشأ الذكر والوضوء والصلاة، وما يكون على صورة السراج والشمس وأمثالها فأكثره يكون ولاية الشيخ، أو من الحضرة النبوية، أو من أنوار العلوم أو القرآن أو الإيمان، وكذا الشمع والسراج نور قلبه وصورة المشكاة والقنديل، وما يشاهد على صورة الكواكب يكون من الأخلاق المحمدية.

واعلم أن المقامات التى تراها الصالحون أسرار يظهرها الله سبحانه وتعالى فى مرآة القلوب الصافية، والرؤية الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة، وقال ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قيل: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الرؤية الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له» وقال ﷺ: «أصدقكم حديثًا أصدقكم رؤيا، وإذا اقترب الزمان لم يكد تكذب رؤيا المؤمن، وكان ﷺ يقول عند انصرافه من صلاة الصبح: «من رأى منكم رؤيا فليخبرنى أعبرها له» لكونه يرى أثر الوحى الإلهى فى أمته.

فهذه المقامات تنبى عن أحوال السالكين إذ جميع ما يراه المؤمن فى منامه على اختلاف درجة السائرين كشفًا عن أحوالهم الظاهر والباطنة فليتثبت القاصر للرؤية لئلا يزيد فيها على ما يراه، فتدخل فى قوله ﷺ: «من كذب فى حلمه فليتبوأ مقعده من النار» ومن كذب فى منامه فى السالكين دل على خيانته وعدم صدقه مع الله، وكان عقابه وخيانته راجعة إليه، فإن كان كذبه، وإن خفى عن الشيخ،

ورقاه بتلك المقامات والأسماء وألبسه الخرقة، فإن ذلك لا يخفى على الله ولا على أهل الطريقة، والله لا يحب الخائنين، فإذا علم المريد كذب نفسه فليتنبه وليتب، فإن مكر به وطرد فليستدرك نفسه بالرجوع والاستغفار، وليخبر الشيخ بما صدر منه ليتوجه الشيخ إلى الله تعالى فى قبوله، لأنه كذب فى سر الله الذى هو وحي الله تعالى لعباده على لسان ملك الإلهام يبشرهم الله به ويعظهم ليزدادوا بذلك جدًّا وزهدًا.

قال بعض المحققين: اعلم أن أنواع الرؤيا أربعة أحدهما المحمود ظاهرًا وباطنًا كالذى يرى أنه يكلم الله، عز وجل، أو أحد الملائكة أو الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فى صفة حسنة، أو كلام طيب أو أنه يجمع جواهر أو أكلا طيبًا أو يرى أنه فى مكان من مكان العبادة، ونحو ذلك.

الثانى: المحمود ظاهرها المذموم باطنها كسماع الملاهى أو شم الأزهار فإن ذلك هموم وأفكار، ولمن يرى بأنه يتولى منصبا لا يليق به.

الثالث: المذموم ظاهرًا وباطنًا، كمن يرى حية لدغته أو نارًا أحرقته أو سيلا غرقه أو هدمت داره أو انكسرت أشجاره، فذاك ردىء لدلالته على الهم والنكد.

الرابع: المذموم ظاهرًا المحمود باطنًا كمن يرى أنه ينكح أمه، أو يذبح ولده، فإنه يدل على الوفاء بالنذر أو الحج إلى أكبر أماكن العبادة، وعلى أنه ينفع أمه، ويزوج ولده، وعلى مواصلة الأهل، وعلى رد الأمانات.

ثم اعلم أن أحوال السالك إما رؤيا، وإما واقعة، فالرؤيا ما يراه فى النوم والواقعة ما يراه فى حال اليقظة، وهو مغمض عينيه، ويسمى ذلك بعالم المثال وبعالم الملكوت، والدخول فى عالم المثال لا يكون للسالك إلا فى حالة اليقظة

والنوم، ويعرض ذلك وهو جالس غالبًا، ويرى ما يرى، وقد يكون صاحب هذه الواقعة مفتح العينين لكن لا بد من ذهول يعترى الرأى.

وفى هذا المقام يكون الهو الله، وهى خطاب الحق بطريق المكافحة فى عالم المثال، وشرط من هو فى عالم المثال أن يعلم المكان الذى هو فيه والوقت، ويعلم أنه بين النوم واليقظة ثم يترقى حتى يصير جانب اليقظة أغلب. اهـ.

الخاتـــمة

.فى شىء من مصطلح القوم
مما ينبغى الوقوف عليه

أى فى بيان تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة، وبيان ما يشكل منها على غيره.

اعلم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم، اعترضوا بها عمن سواهم، حيث توافقوا عليها لتقريب الفهم على المخاطبين بها أو للتسهيل على الوقوف على مقاصدهم بإطلاقها، كأهل أصول الدين، حيث اصطلحوا على إطلاق العالم والجوهر والسكون والحال وغيرها لمعادن أرادوا ربما وافق بعضهم مقتضى اللغة على وضعها الحقيقي، وهذه الطائفة يستعملون ذلك الكشف عن المعانى وللإجمال والستر على من بيالهم فى طريقهم، وهى معادن أودعها الله فى قلوبهم.

ولنشرح ظواهر بعض اصطلاحاتهم ليسهل فهم من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طريقهم.

فمن ذلك قولهم:

التصوف هو تفريد القلب لله، واحتقار كل ما سواه.

المراقبة هى استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه.

المشاهدة هى رؤية الحق فى كل ذرة من ذرات الوجود مع التنزيه عن ما لا يليق به.

الاتصال، قال الثورى ﷺ: الاتصال أن لا يشاهد العبد غير خالقه، وقال بعضهم: الاتصال وصول السؤال مقام الذهول، وقال بعضهم: الاتصال مكاشفة القلوب ومشاهدة الأسرار.

الشهود برؤية الحق بالحق التجلي ما ينكشف لقلب السالك من أنوار الغيب، فإن كان مبدؤه الذاتي من غير اعتبار صفة من الصفات سمي تجلي الذات، وأكثر الأولياء ينكرونه ويقولون: إنه لا يحصل إلا بواسطة صفة من الصفات فيكون هذا من تجلي الأسماء الذى هو قريب من تجلي الصفات من حيث تعيينها وامتيازها عن الذات، تسمى تجلي الصفات، وإن كان مبدؤه فعلا من الأفعال سمي بتجلي الأفعال، فتجلي الأسماء هو ما ينكشف لقلبه من صفاته تعالى، وذلك بعد فناء صفات السالك ظهر على السالك بصفة من صفاته تعالى بعض آثار تلك الصفة بفضل الله تعالى، مثلاً إذا تجلى عليه الحق تعالى بصفة السمع صار يسمع تعلق الجمادات أو غيرها، وقس على ذلك، وتجلي الأفعال هو ما ينكشف لقلب السالك من أفعاله تعالى، فإذا تجلى الحق تعالى على السالك بفعل من أفعاله الكشف السالك جريان قدرة الله تعالى فى الأشياء، فيرى أن الله تعالى هو المحرك وهو المسكن شهودًا حاليًا لا يعرفه إلا من هو أهله، وهذا التجلي مزلة الأقدام فيخشى على السالك منه لأنه ينفي الفعل الثابت.

واعلم أن تجلي الأفعال سابق على تجلي الصفات والأسماء، فإذا ثبت السالك وأقام الشريعة على نفسه مع شهود أن المحرك والمسكن هو الله ترقى من هذا التجلي الخطر إلى تجلي الأسماء والصفات، وإن لم يثبت تزندق وطرد من الطريق.

الشوق احتياج القلوب لقاء المحبوب.

المحبة هى ميل الطبع إلى الشيء لكونه لذيذًا، ومحبة السالكين ميل قلوبهم إلى جمال الحضرة الإلهية.

الحال معنًى يرد القلب بلا تصنع ولا احتلاب ولا اكتساب، وهو إذا قرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة أو غير ذلك مما يرد على القلب، فإذا زال عنه فهو

المسمى بالحال، وإذا دام وصار ملكة يسمى مقامًا، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب.

الوقت عبارة عن التجلى للعبد من الحق تبارك وتعالى.

القبض والبسط حالتان يحصلان للسالك المتوسط فى الطريق، كما أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، فالقبض يورث خشية وأدبا معروفًا لأنه يزهد فى الدنيا، ويدل على الآخر.

والبسط فرح القلب بالتوجه إليه.

الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط، كالخوف والرجاء، والهيبة مقتضاها الصحو والإفاقة.

الشرب والرى عبارة عما يجدونه عن ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وموارد الواردات، فأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى فصفاء معاملتهم توجبهم ذوق المعانى ووفاء منازلهم توجب لهم الشرب ودوام مواصلتهم توجب لهم الرى، فصاحب الذوق متساكر، وصاحب السُّكْر شربان، وصاحب الرى صياح السر وسر السر، قال: تحمل على أنه اللطيفة الربانية المودعة فى القلب كالأرواح وهو باطن الروح، فإن تنزل درجة كان روحًا وإن تنزل أخرى سمى قلبًا، وأصولهم تقضى أنه محل المشاهدة كما أن الأرواح محل المحبة، والقلب محل المعارف، وقال: السر ما لك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع لغير الحق عليه.

الملكوت عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس المجردة.

الرتبة الأحدية المرتبة المستهلكة فى جميع الصفات والأسماء، وتسمى جميع الجمع.

الفناء أن يفنى السالك عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بالله.

والبقاء هو أن يفنى بما له ويبقى بما هو لله تعالى.

الجمع شهود الأشياء بالله، والتبرى عن الحول والقوة.

جمع الجمع الاستهلاك بالكلية والفناء عن ما سوى الله، وهى مرتبة الأحدية المتقدمة ويقال: فنا الحس وبقا الأنس.

الفرق الأول هو أن يحتجب السالك بالخلق عن الحق وهو حال عوام السالكين.

الفرق الثانى هو شهود قيام الخلق بالحق ورؤية الوحدة فى الكثرة، والكثرة فى الوحدة، من غير حجاب بإحداهما عن الأخرى.

التجريد عبارة عن إزالة الأغيار عن القلب، والسر الحرص إجمال إلى طلب الإلهى الوارد على القلب بضرب من القهر.

علم اليقين هو العلم الحاصل بالمشاهدة.

حق اليقين هو فناء صفات تعبد فى صفات الحق وبقائه علمًا وحالا لا علما فقط، فالذى يفنى من العبد على التحقيق صفاته لا ذاته، فحينئذ لا بد من بقاء عين العبد الفانى فلا تفنى ذاته فى ذات الحق كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله، بل العبد كلما تقرب إلى الله بالعبودية وإظهار العجز والفناء عن جميع الصفات المناقضة للعبودية وهبه الله فضلا من صفات حميدة خفية عوضًا عن ما فنى من الصفات الذميمة الخليقة، والله تعالى هو القادر على كل شىء، لكن متى شاء أذهب من العبد ما فيه من الخبائث وأمده بما يعجز عنه كلا سوى الله، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، ولا راد لما قضى، ولا مبدل لما حكم، وقد مثلوا

لذلك، وهو أن القطعة من الفحم إذا وقع عليها ضوء النار لكن لا بسبب المقابلة، بل بسبب وقوعها على حائط مثلا، ثم انعكس الضوء من الحائط على قطعة الفحم فأضاءت وهذا مثال لعلم اليقين، وإذا كانت القطعة الفحم بجانب النار بحيث تشعر من حرارتها وتفنى أوصافها فى أوصاف النار وانفعالها بانفعال النار، وهذا مثال لحق اليقين، وهذا التحقيق مأخوذ من كلام سيدى محيى الدين بن العربى وغيره، فقد قال: ولا تعتقد أن ذات العبد تفنى فى ذات الحق، فلا يبقى إلا الحق، فإن ذلك ضلال وجهل لا يرضى به المحققون، وإن وقع من أصحاب السطح ما يشعر بذلك فإن السطح مردود عن أهله، وهو عبارة عن كل كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، وهو من زلات السالكين، وقال ابن الحاج فى شرف الحكم، فإن قيل: حقيقة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، قلنا: العلم المتواتر بوجود الشيء علم اليقين ورؤيته دون الحلول به عين اليقين.

والحلول حق اليقين، مثال ذلك كعلمنا بوجود مكة ورؤيتنا لها وحلوسنا بها، وإن شئت قلت: رؤية هيول السكر أنه يجى منه حلاوة علم اليقين.

فانظر رحمك الله ما أحلى ضرب هذا المثال من السكر، فإنه سكر.

الطوالع هي أول ما يبدو من تجليات الأسماء فى باطن السالك، فتحن أخلاقه بها لأنها تنور باطنه.

الحجاب هو انطباع الصور الكونية فى القلب المانع من قبول تجلى الحق، وقد تكثر الأغيار فتكون حجبًا ظلمانية، وقد تقل وتكون حجابًا نورانيا، فلذلك اختلف المحققون فى ترك الأسباب والخلوة لئلا تطبع الصور الكونية فى قلبه فتمنعه عن تجلى الحق له، والدليل على أن المانع هو الصور، إنك ترى العابد الذى ليس سالكًا لطريق المحققين يعبد الله سبعين سنة فلم يحصل فى قلبه شيء مما يحصل

للسالكين، لأن العابد الذى ليس سالكًا قلبه مملوء الأغيار ولا يسعى فى إذهابها عن قلبه، ولا يريد ما أراده السالكون بل يطلب ما وعده الله تعالى فى الجنة، وهو لا يخلف الميعاد، وأما العابد السالك فيعطيه الله فى الدنيا التجليات وله فى الآخرة أعلى المقامات.

الهوية السارية فى جميع الموجودات هى عبارة عن الذات العلية الملاحظة لا بشرط شىء ولا بشرط لا شىء.

وقال القصير فى شرح تائية ابن الفارض: اعلم أن الذات الإلهية إذا اعتبرت من حيث هى هى أعم من أن تكون موصوفة بصفة ما، أو غير موصوفة، فهى مسماة عند القوم بالهوية، وحقيقة الحقائق، وإذا اعتبرت مجردة عن الصفات الزائدة عليها فهى المسماة بالواحدية والإلهية مشتملة عليها، والصفات إن كانت متعلقة باللطف والرحمة فهى المسماة بصفات الجمالية، وإن كانت متعلقة بالغير تسمى بالصفات الجلالية، ولكل منهما جمال وجلال، أى: وللصفات الجمالية جلال وللجلالية جمال، وإذا اعتبرت الظاهرة الخليقة من غير استهلاك فيها تسمى بمقام الفرق، والفرق منقسم بقسمين: الأول، والثانى، ويعنى بالأول ما يكون قبل الوصول، والثانى بعد الوصول، والفرق الأول للمحجوبين، والثانى للكاملين المكملين ويقال له: الفرق بين الجمع والصحو بعد المحو والبقاء بعد الفناء، والصحو الثانى، وما يشبه ذلك وهى عبارة عن إفاقة العبد بعد ضعفه، أى بعد أن تجلى عليه الحق سبحانه وأفناه عن أنيته، ولما كان الوصول إلى الحضرة الإلهية متوقفًا بالعناية الأزلية الجاذبة للعبد إلى ربه لأن حال العبد فى البداية دائرة بين الصحو والمحو، ويعنى بالمحو السُّكْر، وهى حالة ترد على الإنسان بحيث يغيب عنها عن عقله ويحصل منه إبطال وأفعال لا مدخل للعقل فيها كالسكران من الخمر،

لكن بينهما من الفرق ما بين السماء والأرض، وهذا السكر نتيجة المحبة، وهى نتيجة الجذبة وهى نتيجة التوفيق والعناية، فلا مدخل للكسب فيها، وهذا حال المحبوبين لا حال المحبين، فإن جذبهم إنما هو بعد السلوك والمجاهدة.

الطهارة حفظ الله العبد من المخالفات.

طاهر الظاهر، من حفظه الله من المعاصى.

طاهر السر، من لا يذهل عن الله طرفة عين.

الوجد هو استدعاء النفس إلى الخيرات وترك الدنيا وحب الآخرة والتواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار.

الوجود، هو البعد عن حضرة الخلق والقرب من حضرة الحق.

كيمياء العوام استبدال المتاع الأخروى الباقى بالحطام الدنيوى الفانى.

كيمياء الخواص خليص القلب من الكون.

كيمياء السعادة التخلى عن الأوصاف الذميمة والتحلى بالأوصاف الحميدة المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة وهما أكمل من المكاشفة، والكشف أكمل من المحاضرة، فهى ـ أعنى المحاضرة ـ تكون ابتداء أول المراتب ثم المكاشفة ثم المشاهدة فالمحاضرة حضور القلب مع الحق بالبرهان، ثم بعده المكاشفة، وهى حضور القلب بالوصف التام بالبرهان غير مفتقر إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل، ولا يجير من دواعي الريب، ولا محجوب عن نعت الغيب ثم المشاهدة، وهى وجود الحق تعالى من غير بقاء الهمة لما شاهده من الكمال، وتطلق المشاهدة أعنى رؤية الأشياء بأدلة التوحيد، فصاحب المحاضرة مربوط براهينه وخوارق عادته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته وصاحب المشاهدة يلغى فى ذاته لفنائه عما سوى الحق.

والمعاينة قيل: غايتها تحقيق إحاطة الذات التى لا تصلح مع وجودها كرهًا بغير اللوائح واللوامع، هذان كناية عن اختلاف أحوال أدب السلوك وما يفتح الله به عليهم من المقامات التى يدعون بلوغ كمالها كالزهد والتوكل والرضا والتسليم والمحبة، وهما والطوالع متقاربة معنًى لا يكاد يحصل بينهما كبير فرق، وإن كانت الطوالع أتم ثم اللوامع، وهى صفة أصحاب الديانات الصاعدين فى الترقى بالقلب، فتكون الأشياء التى تظهر لهم أولاً لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوائح كالبروق ما ظهرت ثم استترت، واللوامع أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة التى للوائح، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة مثلاً، فإذا لمع الطالع قطعك عنك، وجمع به التكوين والتمكين.

التكوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، يقال لنيل الحال والرجوع عنه، فصاحبه تارة يكون مع الحق وتارة مع نفسه فهو متلون، ويقال: الانتقال من منزل إلى آخر إلى أن يصل إلى مطلوبه الأقصى، فيصير متمكنًا فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تنوين لأنه يترقى من حال إلى حال، فإن وصل إلى مقام التوحيد وغلب على قلبه حال الحق العقل، ومن ثم قال المشايخ: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفر بنفوسهم فقد وصلوا، واعلم أن الفقير الحاصل بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما لقوته أو لضعف الوارد عليه، فإن كان الوارد قويًا وصاحبه ضعيفًا لم يحمله، وإن كان بالعكس حمله ولم يتغير النفس هى عند القوم ما كان معلومًا من أوصاف العبد مذمومًا من أفعاله وأخلاقه، وكثيرًا ما يعبرون بها عند مبدء الصفات المذمومة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] ولذلك اعتدت من أكبر أعداء الإنسان لصعوبة الخلاص من شرها، ألا ترى أن الإنسان إذا صافح الأعداء أمن من شرهم، وإن صافح نفسه أهلكته، ولذلك كان جهادها الجهاد الأكبر، ثم إن:

المعلولات من أوصاف العبد الشاملة لأفعاله وأخلاقه على ضربين: أحدهما كسبًا كمعاصيه ومخالفته أمر ربه، كالزنا والسرقة، والثانى أخلاقه الدنيوية التى طبع عليها، كالجبن والجزاء والميل اللذيذ فهى فى نفسها مذمومة، ومع ذلك فإن عالجها العبد ونازلها، أى تركها وانتقل عنها، تنتفى بالمجاهدة تلك الأخلاق على العادة المستمرة وإن لم يتغير الطبع وهو الميل لكل لذيذ والنضرة عن كل كريهة، فالنفس بطبعها تميل إلى الدنيا لكونها لا تعرف حسنًا غيرها، فإذا عرفت نقصها وحجبها عن الخيرات تفوتها، وكذلك من نظر إلى الأعمال الصالحة ومشقة القيام بها يجد نفسه نافرة عنها، فإذا عرف ما يترتب عليها من الفوائد مال إليها وكره تركها، فالذى كان تاركا له صار مائلاً إليه، والطبع لم يتغير.

والنفس والروح والسر والعقل عند محققى الصوفية بمعنًى واحد، وهو ما يفارق الإنسان بموته من اللطيفة الإنسانية والحقيقة الربانية، ومن هؤلاء الغزالى حيث قال: النفس للذم وللحقيقة الربانية، والسر لما يكتم، وفرّق بعضهم بينهما بأنه يحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة فى هذا.

الغالب هى الأخلاق المحمودة، ويعبر عن هذا بأن الروح جوهر نورانى علوى ربانى، والنفس ظلمانية سفلية شيطانية، وأما القلب فتقلب بينهما، فالروح طيبة شأنها الموافقة والنفس خبيثة شأنها المخالفة، والقلب إن مال إلى الروح اتصف

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٣.

بصفاتها أو إلى النفس فبالعكس، وتكون جملة الإنسان مسخر بعضها البعض والجمع إنسان واحد، ولا يؤثر فى الفرق بينهما اشتراكهما فى اللطافة فافهم.

الرموز من الفوز تفتح الكنوز

وفى هذا القدر كفاية لمن وفقه الله

والحمد لله أولاً وآخرًا

وأسأل الله أن ينفعني به والأخوان مدة الزمان

آمين يا رب العالمين

الحمد لله الذى منح أولياءه بالطاعة، وخص أنبياءه بالشفاعة، والصلاة والسلام على رسول الله المحذر المبشر الذى أنزل عليه المزمل والمدثر، وعلى آله وأصحابه وأتقيائه البررة الكرام، الذين أجاعوا الكبود وهجروا المراقد وعبدوا الله فى جنح الظلام.

فهرس الموضوعات